جامعة شندي
كلية الدراسات العليا
كلية الآداب – قسم التاريخ

الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية (589-650هـ/1193-1252م)

بحث مقدم لنيل ماجستير الآداب في التاريخ

إعداد الطالبة / جليلة حسن محمد أحمد
إشراف الدكتور/ حسن عوض الكريم علي أحمد

أبريل 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المحتويات	
الأية	
الإهداء	
الشكر	
المستخلص	
Abstract	
الفصل الأول : ❖ ماهية الحروب الصليبية ❖ نشأة الدولة الأيوبية حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي	31 -1 1 14
الفصل الثاني : الصراع الأيوبي الصليبي في عهد أبناء صلاح الدين والسلطان العادل سيف الدين (589-616هـ / 1193-1218م) ❖ أحوال الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي ❖ العادل والصليبيون ❖ الحملة الصليبية الخامسة ضد مصر سنة 615هـ/1217م	71 – 32 34 47 66
الفصل الثالث : الصراع الأيوبي الصليبي زمن السلطان الكامل محمد 616-635 / 1218-1238م ❖ سقوط دمياط 616هـ/1218م ❖ الحملة الصليبية السادسة 626 -627هـ/1228-1229م ❖ صلح يافا 626هـ/1229م	108 - 72 74 90 99
الفصل الرابع : الصالح نجم الدين أيوب والصليبيين 637-	

647هـ/1238–1249م	109–146
❖ التطورات السياسية في الدولة الأيوبية منذ وفاة الكامل محمد وحتى ولاية الصالح نجم الدين	111
❖ الصراع الأيوبي الصليبي 1239–1249م وأثره على الدولة الأيوبية :	121
أ. الحملة الفرنسية 1239م.	122
ب. الحملة الإنجليزية 1249–1241م .	127
ت. الحملة الصليبية السابعة 1249م على مصر وأثرها على الدولة الأيوبية	133
الفصل الخامس : الصراع الأيوبي الصليبي في عهد المعظم تورانشاه 648–650هـ/ 1250–1252م	147–173
❖ الدولة الأيوبية قبل تورانشاه	148
❖ السلطان المعظم تورانشاه والصراع مع الصليبيين	148
❖ مقتل تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية 648–650هـ/ 1250–1252م	166
الخاتمة	174–178
الملاحق	179–187
المصادر والمراجع	188–193

قال سبحانه وتعالى :

(ولو شَاءَ اللهُ لَجَعلَكُم أُمةً واحدةً ولكن يُضِلُ مَن يَشَاءُ ويَهدِي مَن يَشاءُ وَلَتُسَأَلُنَ عَمَا كُنتُم تَعمَلُون)

صدق الله العظيم

سورة النحل (93).

الإهداء

الحمد لله العزيز الجبار والصلاة والسلام على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية وهاديها إلى نور ربها

أهدي هذا العمل ....

إلى أمة أنتمي إليها وأحبها ...

إلى أمة أعتز وأفتخر بالإنتماء إليها ، فقد حكمت العالم قروناً متطاولة ، وشهد التاريخ لها عدم حدوث أزمات حادة وضارة

إلى أمة جعلها الله وسطاً فقال: (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً) ثم جعلها شاهدة على الناس بقوله: (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

كما أهدي هذا الجهد ...

الى أمي وأبي وإخوتي...

الشكر

قال صلى الله عليه وسلم:

(من لا يشكر الناس لا يشكر الله)

الشكر دائماً وأبداً لله العزيز الجبار الخالق البارئ المصور الرحمن الرحيم فلولا فضله ما خط القلم ولا فهم الفؤاد .

والشكر موصول لجامعة شندي ممثلة في كلية الدراسات العليا وعمادة شئون المكتبات وكلية الآداب وقسم التاريخ .

و الشكر لدكتور. نصر الدين جار النبي أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية التربية جامعة كردفان حالياً والرئيس الأسبق لقسم التاريخ بجامعة .

كما أتقدم بالشكر و الإمتنان للدكتور حسن عوض الكريم لإشرافه على هذا العمل والجهد وأرجو الله له الأجر والثواب .

كما أشكر أمانة المكتبات بجامعة شندي والنيلين وأم درمان الإسلامية التي فتحت أبوابها أمامي للإستفادة من مقتنياتها .

والشكر أجزله للأخ علاء الدين حسن الذي قام بطبع مادة البحث .

وأخص بالشكر أسرتي الكريمة فقد كانوا لي على الدوام عوناً وسنداً...

المستخلص

يتناول هذا البحث الصراع الأيوبي – الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية في الفترة (589–650هـ/ 1193–1252م) ، وهي فترة مهمة في التاريخ الإسلامي إذ تمثل التسعة وخمسون سنة الأخيرة من تاريخ الدولة الأيوبية في (مصر وبلاد الشام) ، والتي أعقبت عهد صلاح الدين الأيوبي في عام 1193م وحتى سقوط الدولة الأيوبية عام 1252م .

الهدف من هذه الدراسة توضيح الصراع الأيوبي – الصليبي وأثره على الدولة الأيوبية، وعكس الدور الجهادي والحضاري لخلفاء صلاح الدين في صد الخطر الصليبي عن المشرق الإسلامي، وإبراز دور المسلمين في صد الخطر الصليبي عن بلاد المسلمين، وكذلك البحث في التاريخ الإسلامي ، ودراسة الجوانب الحضارية للمسلمين، وإثراء المكتبة الإسلامية .

إتبع الباحث المنهج الوثائقي التحليلي لكي تتحقق أهداف البحث ، ثم جمع مادة البحث من المصادر العربية ومجموعة من المراجع العربية والمعربة والأجنبية والرسائل الجامعية وبعض المواقع على الشبكة العنكبوتية.

ومن خلال الدراسة إتضح للباحث أن الصراع الأيوبي – الصليبي (1193 – 1252م) كان واحداً من أهم العوامل التي أدت لسقوط الدولة الأيوبية.

ABSTRACT

This study treats the Ayobean – Crusade, and how that effects the down fall of the Ayobean state in the peroid 1193 – 1252. It was an important peroid in the Islamic history, as it represents the last years of the Ayobean in Egypt and Asham that succeeded the reign of the Ayobean salahadeen and the end of the Ayobean state in 1252.

This study aimed at illustrating the effects of the Ayobean – Crusaded conflict on the Ayobean state; and showing the role of salahadeen's successors and the Muslims in staving off the crusaded danger from Islamic East. The study also highlights the Islamic civiliation and enrichment of the Islamic library.

The researcher follows the descriptive analytical method. The data is collected from Arabic references, references in English, university theses and internet sites.

The study comes to the fact that the Ayobean – Crusade conflict is a major cause for the down fall of the Ayobean state.

المقدمة

أهمية البحث :

تتناول هذه الدراسة الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية 1193– 1252م، وهي فترة مهمة في التاريخ الإسلامي إذ تمثل الفترة الأخيرة في الدولة الأيوبية (في مصر وبلاد الشام) والتي أعقبت عهد صلاح الدين الأيوبي في 589هـ/1193م وحتى سقوط الدولة الأيوبية في 650هـ/1252م.

أهداف البحث :

الغرض من هذه الدراسة توضيح الصراع الأيوبي الصليبي في تلك الفترة وأثر ذلك في سقوط الدولة الأيوبية . وعكس الدور الجهادي والحضاري لخلفاء صلاح الدين في صد الخطر الصليبي عن المشرق العربي الإسلامي، ولإبراز دور المسلمين في صد الخطر الصليبي عن بلاد المسلمين . والبحث في التاريخ الإسلامي ودراسة الجوانب الحضارية للمسلمين ، وإثراء المكتبة الإسلامية .

منهج البحث :

إتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي وهو المنهج الوثائقي التحليلي .

مصادر ومراجع البحث :

قام الباحث بجمع مادة البحث من بعض المصادر والمراجع، وهناك مصادر استفاد منها الباحث في كل فصول البحث مثل الكامل لإبن الأثير ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لإبن تغري يردي ، ووفيات الأعيان لإبن خلكان وغيرها . وهناك مصادر استفاد منها الباحث في فصول معينة في البحث مثل النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لإبن شداد ، والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة.

كذلك المراجع منها ما استفاد منه الباحث في كل فصول البحث مثل دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك لحمدي عبد المنعم حسين ، ومحاضرات في تاريخ

الأيوبيين والمماليك لحامد زقان غانم ، وفي تاريخ الأيوبيين والمماليك لأحمد مختار العبادي . ومنها ما أفاد الباحث في فصول معينة في البحث مثل حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة لمحمد مصطفى زيادة ، والعادل الأيوبي لمحمود الحويري ، والحملة الصليبية الخامسة علي مصر لمحمود سعيد عمران.

كذلك جمع الباحث مادة البحث من المراجع المعربة مثل تاريخ الحروب الصليبية لاستيفن رانسمان تعريب السيد الباز العريني وقد استفاد منه الباحث في كل فصول البحث ، وكذلك الإسلام والغرب لروم لاندو تعريب منير البعلبكي ، والتاريخ الوسيط لنورمان كانتور ترجمة قاسم عبده قاسم ، وغيرها . هذا بجانب المراجع الأجنبية والمواقع على الشبكة العنكبوتية .

الدراسات السابقة :

استفاد الباحث من الدراسات السابقة مثل العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي رسالة ماجستير غير منشورة لمحمود رزق محمود بجامعة القاهرة بالخرطوم ، وكذلك رسالة دكتوراة غير منشورة بجامعة القاهرة بالخرطوم بعنوان العلاقات بين الدولتين الفاطمية والأيوبية والمدن الإيطالية لأحمد عطية رمضان .

هيكل البحث :

إقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وقائمة ملاحق وقائمة بالمصادر والمراجع.

بدأ البحث بمقدمة تضمنت أهمية البحث وأهدافه ومنهجه والمصادر والمراجع والدراسات السابقة وتبويبه .

وكان الفصل الاول عبارة عن تمهيد تضمن تعريفاً بالحملات الصليبية وقيام الدولة الأيوبية ، ولكي يتسنى للقارئ فهم الظروف التي ساهمت في إبراز آل أيوب على مسرح الأحداث السياسية فهماً صحيحاً تطرق الباحث لأحوال العالم الإسلامي بشكل عام وأحوال الخلافتين العباسية والفاطمية بشكل خاص . وكتب الباحث في بداية

كل فصل من فصول البحث النقاط الهامة التي عالجها البحث لتكون بمثابة مرآة يهتدي بها القارئ لمشتملات الفصل .

اشتمل الفصل الثاني على الصراع الأيوبي الصليبي في عهد أبناء صلاح الدين الأيوبي والسلطان العادل سيف الدين (1193 – 1218م) . ثم جاء العرض عن أحوال الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي ، وهي فترة النزاع على السلطة بين الأخوين العزيز والأفضل وعمهما العادل ، وعن العادل والصليبيون . وعن الحملة الصليبية الخامسة على مصر (1218م) .

أما الفصل الثالث فكان عن الصراع الأيوبي زمن السلطان الكامل محمد (1218 – 1238م) وتناول فيه الباحث سقوط دمياط سنة 1219م ثم الحملة الصليبية السادسة وصلح يافا في سنة 1229م . وعرض الباحث أيضا تعرُّض الأيوبيين للخطر الخوارزمي ببلاد الشام في 1231م ونشوب الخلافات الأيوبية / الأيوبية حتى وفاة الكامل في 1238م .

أما الفصل الرابع فكان عن الصالح نجم الدين أيوب والصليبيين ثم جاء العرض عن التطورات السياسية في الدولة الأيوبية منذ وفاة الكامل وحتى ولاية الصالح نجم الدين أيوب ، وعن الصراع الأيوبي الصليبي وأثره على الدولة الأيوبية (1239 – 1249م) وهي الفترة التي شهدت الحملتين الفرنسية والإنجليزية ثم الحملة الصليبية السابعة على مصر وأثرها على الدولة الأيوبية .

أما الفصل الخامس فقد اشتمل على الصراع مع الصليبيين في عهد المعظم تورانشاه ، وجاء فيه أحوال الدولة الأيوبية قبل تورانشاه ثم عن السلطان تورانشاه والصراع مع الصليبيين ، وأخيراً مقتل تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية (1250 – 1252م) .

وانتهى البحث بخاتمة عن أهم النتائج التي حققها البحث .

و الله نسأله التوفيق والسداد

الفصل الأول

- ✓ ماهية الحروب الصليبية
- ✓ نشأة الدولة الأيوبية حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي

ماهية الحروب الصليبية

تُعد الحروب الصليبية التي استمرت حوالي قرنين من الزمان (1069 – 1291م) أهم مرحلة مميزة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب. وكانت الدولة الأيوبية (1171 – 1250م) واحدة من دول المشرق الإسلامي التي واجهت الصليبيين وبما أن موضوع بحثنا يتناول الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية في الفترة من (1193– 1252م) وهي الفترة الأخيرة من عمر الدولة الأيوبية كان لابد أن نقدم تمهيداً نتناول فيه تعريفاً بماهية الحروب الصليبية ودوافعها، كما نتناول نشأة الدولة الأيوبية وصراعها مع الصليبيين (1174 – 1193م) وهي الفترة التي عمل فيها صلاح الدين على إعادة الوحدة الإسلامية بمصر والشام وحولّها إلى كتلة متراصة في مواجهة العدو الصليبي ليحرز بعدها تلك الإنتصارات الحاسمة ضد الصليبيين، فكان أولها هزيمتهم في حطين ثم توجها بإستعادة بيت المقدس في سنة 1187م.

تُعد الحروب الصليبية إمتداداً لفكرة الصراع الطويل بين العالمين الشرقي والغربي، لذلك خرج الغرب الأوربي متستراً بالدين تحت راية الصليب غازياً الشرق العربي الإسلامي بحجة حماية أوربا من الإسلام، فأضفى على حملاته الصفة الصليبية، كما اتخذ الصراع طابعاً جديداً هو المظهر الدولي إذ إشترك في هذه الحروب الصليبية معظم الشعوب الأوربية الغربية التابعة للكنيسة الكاثوليكية التي تتزعمها البابوية.[1]

وقد إختلف المؤرخون حول بواعث الصراع بين المشرق العربي الإسلامي والغرب الأوربي الصليبي، فيرجعها كل منهم لباعث أو عامل معين رغم أنه في الواقع وليد بواعث عديدة و عوامل مختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية وتوسعية، لكن الكنيسة الغربية ممثلة بالبابا (الباعث الشخصي) إستطاعت إخفاء هذه البواعث جميعها وراء ستار الدين وشعار الصليب، ليظهر أمام العالم الغربي المسيحي وكأن الباعث الديني هو الدافع الحقيقي لهذا الصراع الذي ظهر بشكل حروب عرفت بالصليبية. واتفق معظم المؤرخون على تقسيم هذه الحروب التي تعرّض لها المشرق العربي إلى سبعة:

---

[1] عصام محمد شبارو: السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1994، ص 94.

الحرب الصليبية الأولى (1069–1099م) نحو بيت المقدس وساحل الشام.
الحرب الصليبية الثانية (1146–1148م) نحو دمشق.
الحرب الصليبية الثالثة (1189–1292م) نحو عكا.
الحرب الصليبية الرابعة (1202– 1204م) نحو القسطنطينية.
الحرب الصليبية الخامسة (1217–1221م) نحو مصر.
الحرب الصليبية السادسة (1228–1229م) نحو بيت المقدس.
الحرب الصليبية السابعة (1248– 1250م) نحو مصر.

وهذه الحروب الصليبية رغم تسمية المؤرخين لها بأرقام، هي في النهاية عملية مستمرة متواصلة لا تفصل بينها هذه الأرقام أو سنوات محددة خلال القرنين اللذين شهداها، فقد كانت تتدفق على الشرق بإستمرار قوات صليبية قادمة من الغرب[1].

خرجت فكرة الحروب الصليبية من روما، وبدأ تنفيذها على يد البابا أوربان الثاني الذي تولى كرسي البابوية سنة 1081م فاستغل الروح الدينية المسيطرة على شعوب غرب أوربا، كما استغل طلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بالمساعدة لإنقاذ الإمبراطورية الشرقية قبل فوات الأوان، بعد أن صار بيت المقدس والرها وأنطاكية بيد المسلمين. وقد أقنع مبعوث الإمبراطور البابا بأن السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية وحدها وإنما يهددون النصرانية جمعاء. وهكذا تكون الكنيسة الغربية (البابوية) هي التي إبتكرت الحرب الصليبية الأولى. وأطلق رجال الدين إسم (الحرب المقدسة) لتبرير المصالح والمطامع مستغلين التفكير الديني المسيطر في غرب أوربا في العصور الوسطى. وبذلك كان الباعث الديني له الأثر الفعّال في بدء الحروب الصليبية نظراً لأهمية الدين الذي استغلوه كوسيلة للتحريض والدعاية من أجل إخفاء البواعث الحقيقية للحروب الصليبية التي إندفع ورائها الغرب الأوربي تحقيقاً لمصالحه السياسية والإقتصادية والتوسعية[2].

وتجدر الإشارة إلى الدور المميز لفرنسا في هذه الحروب الصليبية، فقد شارك ملوكها في معظم حملاتها. وقد بدأت الحملات واستمرت في جوهرها مشروعاً فرنسياً حتى أن

---

[1] عصام شبارو: مرجع سابق، ص 94- 95.
[2] إستيفن رانسمان: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب السيد الباز العريبي، ط 3، ج 3، ص 169.

المملكة التي أقامها الصليبيون في المشرق العربي الإسلامي كانت أيضاً في جوهرها مملكة فرنسية في لغتها وعاداتها، لذلك يمكن إعتبار فرنسا مهد الحروب الصليبية.

وقد كانت الحملات ذات المزاعم الدينية التي وجهتها أروبا ضد المنطقة الإسلامية منذ القرن الثالث عشر الميلادي حدثاً تاريخياً فريداً سواءً من حيث مداه الزمني أو من حيث مجاله الجغرافي. وإذا كان بعض المؤرخين يرون في العدوان الصليبي على المنطقة الإسلامية تعبيراً عن التطورات التي ألمَّت بأوربا في القرن الحادي عشر الميلادي فإنها كانت خطراً لم يسبق للمنطقة العربية والعالم الإسلامي بأسره أن واجه خطراً في حجمه وفي عدوانيته واستمراريته منذ إنتشار الإسلام في ربوع الدنيا. ولم تكن الحملات الأوربية الكاثوليكية مجرد عدوان طارئ على العالم الإسلامي، وإنما كانت مشروعاً إستيطانياً توسعياً أرسى السابقة التاريخية لحركة الإستعمار الأوربي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين والحركة الصهيونية الإمبريالية في القرن العشرين[1].

وقد كانت لهذه الحروب آثارها الوبيلة التي استنفذت الطاقات ووضعت العرب والمسلمين في مأزق تاريخي، ففضلوا الحرب على كل ما عداها من وجوه النشاط الإنساني. فإذا ما انتهت هذه الحروب الظالمة وجدت المنطقة الإسلامية نفسها فريسة لنوع من الحكم العسكري الذي فشل في الإستجابة للضرورات والمطالب المدنية إقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

وقد جرى تبرير الحروب الصليبية في مصطلحات دينية واتخذت لنفسها شعاراً دينياً هو الصليب. ولكن أحداثها ومجرياتها برهنت على أن علاقة هذه الحرب بالديانة المسيحية ورمزها الصليب كانت علاقة تنافر وتباعد ولم تكن أبداً علاقة قربى وتواصل. لقد إجتهدت البابوية ودعاتها في تعبيئة الرأي العام في أوربا في العصور الوسطى لهذه الحرب. ولم يتردد البابا والدعاة والكنسيون في التلويح بإغراءات المكاسب الدنيوية لتعبيئة الجماهير ضد المسلمين. وهكذا ولدت الحرب في أذهان الناس في الغرب قبل أن يرى أي منهم مسلماً واحداً على الطبيعة[2].

ومن ناحية أخرى تكفلت الظروف الإجتماعية والإقتصادية والسياسية المتردية في أوربا بضمان إستجابة الناس للخطاب العسكري / الديني للبابوية. وباتت أوربا تتحرق شوقاً

---

[1] قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث، ط1، 2001م، ص 5.

[2] المرجع نفسه، ص 8.

للخروج من جلدها الضيق إلى رحابة العالم للوثوب على الأرض العربية من ناحية ولخطف جزء من ثمار التجارة العالمية في شرق المتوسط من ناحية ثانية ومحاولة التوسع للسيطرة على طرق التجارة والأسواق العالمية من ناحية ثالثة. ولم يكن من قبيل المصادفة أن كل طبقة في المجتمعات الأوربية آنذاك قد خرجت في هذه الحرب تبحث عن (هدف) يختلف عن أهداف الطبقات الأخرى، فالطبقة الأرستقراطية خرجت تبحث عن ممتلكات جديدة تحقق طموحاتها السياسية والإقطاعية، أو تعوّض خسارتها في الأرض والنفوذ السياسي في مواطنها، كما أن الفلاحين خرجوا بأمل التحرر من عبودية الأرض وقنية الإقطاع وإمتلاك أرض يصبحون السادة فيها. أما المدن التجارية الإيطالية والبرجوازية الأوربية الناشئة فقد سعت إلى الإستحواذ على تجارة شرق المتوسط أولاً، ثم محاولة إحتكار التجارة العالمية بعد ذلك. ولم تكن البابوية بعيدة عن هذه الأطماع الدنيوية على الرغم من خطابها الديني، إذ أنها كانت تسعى إلى تحقيق سيطرتها وسيادتها على العالم المسيحي بأسره، كما أنها كانت تسعى إلى تاكيد سموها على السلطة الإمبراطورية المنافسة لها في أوربا[1].

ثم دارت عجلة الحرب ووصلت شراذم الحملات العامة إلى بلاد الشام وهلك معظم أفرادها، حيث قضت عليهم جيوش المسلمين في أول صدام مع الصليبيين، ثم جاءت الحملة الصليبية الرئيسية المكونة من جيوش الأمراء وبعد تقلبات وأحداث عديدة نجحت في الإستيلاء على مدينة بيت المقدس في صيف 1099م، لتتوج بذلك نجاحها العسكري وتقيم الكيان الصليبي على الأرض الإسلامية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان[2].

ولقد أفرزت تطورات الأحداث التاريخية وتزايد إحساس الرأي العام الإسلامي بمدى خطورة الهجوم الصليبي صياغة جديدة تضع الدولة القوية الموحدة بدلاً من الكيانات السياسية الضعيفة والمبعثرة، وهي دولة تقوم على أسس عسكرية متينة تضع كل الموارد في خدمة المجهود الحربي ويقودها ملك محارب يقود جيوشه بنفسه في الميدان، وقد أكدت الأحداث عجز كل من الخليفة العباسي في بغداد والخليفة الفاطمي في القاهرة عن فعل أي شئ إزاء سقوط القدس بأيدي الصليبيين سنة 1099م. مما يؤكد أن الدور

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 8.

[2] عصام شبارو: مرجع سابق، ص 105.

التاريخي لدولة الخلافة ونموذجها السياسي كانا قد تجمدا منذ فترة وعجزت الخلافتان عن مواجهة التحدي الذي فرضه العدوان الصليبي. وقد سقطت الخلافة الفاطمية في خضم الصراع بين المسلمين والصليبيين وحلت محلها دولة عسكرية هي دولة الأيوبيين التي أقامها صلاح الدين الأيوبي على أسس عسكرية محضة وكانت إستمراراً لدور دولة آل زنكي[1].

وعلى الرغم من أن الظواهر السلبية للحروب الصليبية إستغرقت زمناً طويلاً نسبياً حتى تتجلى واضحة على سطح الحياة في المنطقة العربية فإن بذرتها الأولى قد غرست في التربة العربية حينما حتم الظرف التاريخي حشد كل طاقات المنطقة العربية ومواردها لصد العدوان والقضاء على الوجود الصليبي في المنطقة العربية.

كانت الصدمة الناجمة عن النجاح الصليبي قاسية ومؤلمة إذ أنها كشفت عن مدى التشرذم والفرقة السياسية في العالم العربي من ناحية، كما كشفت عن ضعف حكام المنطقة وتخاذلهم من ناحية أخرى، لذلك لم يكن عجباً أن فشل هؤلاء الحكام في كل محاولاتهم المتهافتة للوقوف في وجه المد الصليبي أو تكوين جبهة متحدة ضده، ورغم أن الجهاد لم يتوقف يوماً ضد الغزاة لكن عدم التنسيق والفرقة والتنافس بين الحكام لم ينتج منه سوى الفشل والإخفاق، وعلى مدى ما يقرب من نصف قرن أخذ الصليبيون في التوسع على حساب المسلمين في الأرض العربية، وامتدت حدود الكيان الصليبي من الرها وأنطاكية في الشمال إلى حدود مصر في الجنوب كما استولوا على معظم الساحل في بلاد الشام. ومن عباءة الفشل السياسي والعسكري للحكام برزت الإستجابة السياسية للحروب الصليبية في شكل نمط جديد من أنماط الحكم يتبلور حول الأمير المحارب، أو الملك المحارب الذي يقود بلاده في ساحة الجهاد ويخرج على رأس جيوشه ضد الصليبيين الغزاة[2].

وتوارت خجلاً أو عجزاً نظم الحكم السياسية، فقد عجزت الخلافة العباسية عن أن تفعل شيئاً لحماية الناس والمقدسات، وكان طبيعياً أن تفشل كل المحاولات الفاطمية البائسة من ناحية كما كان طبيعياً أن تفشل كل محاولات التحالف أو التنسيق مع حكام الشمال. وأثبت محور القاهرة / دمشق عجزه الكامل عن التصدي للعدو[3].

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيين والمماليك، التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث، ط1، 1995، ص 9.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 9.
[3] المرجع نفسه، ص 10.

ومن ناحية أخرى فإن الكيانات السياسية الصغيرة في بلاد الشام كانت أصغر من أن تفعل شيئاً إذا أرادت، فقد كانت كل مدينة كبيرة أو ميناء في بلاد الشام كياناً سياسياً منفصلاً كما كانت موزعة بين الشيعة والسنة من جهة وبين ولاءاتها وانحيازاتها القبلية والعرقية من جهة أخرى. وفي هذه الفترة تعرض حكم السلاجقة للتصدع والإنقسام بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة 1099م مما أضعف سلطتهم ونفوذهم بالشكل الذي جعل الخلافة العباسية تحاول إستعادة سلطانها. ولكن أهم نتائج الضعف السلجوقي تمثل في ظهور الحكومات المحلية التي عرفت بإسم الأتابكيات* ، وقد أتاح ذلك الضعف الذي اعترى الإمبراطورية السلجوقية والتفتت والنزاع الداخلي الذي عانت منه بعد وفاة ملكشاه الفرصة أمام الأتابكيات للإستقلال، من ضمن هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي سنة 1127م وتولى حكمها ليقود دولته الجهادية الصغيرة نحو هدف مزدوج هو توحيد الجهود الإسلامية وطرد الصليبيين من المنطقة[1].

وإذا كانت أتابكية الموصل وغيرها من الأتابكيات قد ظهرت على حساب الضعف العباسي والسلجوقي فإن الدولة الأيوبية قد ظهرت هي الأخرى على أنقاض الدولة الفاطمية وبسبب ضعف حكام الموصل بعد نورالدين محمود الإبن الأصغر لعماد الدين زنكي الذي تولى قيادة الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين.

لقد تمثل الفشل الفاطمي الأكبر في مواجهة الهجوم الصليبي في أنهم لم يفهموا حقيقة الغزو الصليبي ولم يروا فيه سوى أداة تمكنهم من سحق السلاجقة السنيين الذين كانوا عدواً خطيراً يتهدد الفاطميين وحين أدرك الفاطميون حقيقة العدوان الصليبي كان الوقت فقد فات، ونتيجة للنصر الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قامت فوق الارض الإسلامية عاصمة لاتينية للمملكة الصليبية. كما قامت مستوطنات صليبية في الرها وأعالي النهرين وفي أنطاكية وسوريا وفلسطين. وحققت بذلك ما لم تحققه الحملات الاخرى التي تلتها. كما ظهر جلياً هدف الغرب الصليبي من تكوين الدول في المشرق العربي الإسلامي وليس إستعادة المدن للإمبراطورية البيزنطية[2].

---

* الأتابك هي كلمة مركبة تعني الوصي أو المربي (أتا = أب أو مربي، بك = أمير) والأتابكيات هي إمارات إقطاعية محلية كانت تقع ضمن التقسيم الإداري السلجوقي/ علي السيد وقاسم عبده قاسم: مرجع سابق ص 8.

[1] قاسم عبد قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص 8.

[2] عصام شبارو: مرجع سابق، ص 109 – 110.

وعلى الرغم من تخاذل حكام المنطقة الإسلامية عن الإتحاد في مواجهة الخطر الصليبي منذ البداية فإن الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين منذ وطأت أقدامهم الارض العربية. ولكن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية وقصر النظر السياسي ، بحيث عجزوا عن وقف المد الصليبي الذي وصل أقصى إتساع له في غضون خمسين عاماً بعد نجاح الحملة الصليبية الاولى. وكانت تلك الفترة التي شهدت عجز القوى العربية الإسلامية في التعاون في خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين ، وكثيراً ما كانت الامارات والدول العربية تعقد بعض الإتفاقيات بقصد العمل المشترك ضد الصليبيين، بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت تنفصم بنفس السرعة التي تمت بها نتيجة لميراث الشك والحقد والمرارة المتبادل فيما بينها، ونتيجة للحرص على المصالح الذاتية والقصور السياسي الذي جعل بعض أولئك الحكام متحالفون مع العدو الصليبي ضد الحكام المسلمين[1].

وعلى الرغم من أن الفشل السياسي في توحيد الجهود العربية إزاء الخطر الصليبي كان يؤدي بدوره إلى المزيد من الإخفاقات العسكرية فإن الرأي العام الإسلامي بدأ يضغط على الحكام. وحين فشل محور القاهرة / دمشق في التصدي للعدوان الصليبي نتيجة لتدهور أحوال الدولة الفاطمية وتشرذم القوى الإسلامية في بلاد الشلام بدأت الدعوة إلى الجهاد تسري في الناس وانتشرت في أرجاء العالم الإسلامي وسرعان ما تحولت الدعوة إلى الجهاد إلى حركة شعبية ضاغطة يقودها المفكرون وأصحاب الرأي. وفي ظل هذه الحركة تكون رأي عام قوي وضاغط بحيث لم يعد بوسع الحكام أن يتجاهلوه. وقيّض لهذه الحركة أن توجه مجرى الأحداث طوال فترة تزيد على قرنين من الزمان[2].

وفي غمار هذه الفوضى السياسية والإخفاق العسكري ظهر عماد الدين زنكي ليقود حركة المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين وبرز محور الموصل/ حلب مبشراً بإستجابة سياسية عسكرية إيجابية للتصدي للصليبيين بدلاً من محور القاهرة/ دمشق الذي أثبت فشله بسبب الضعف والتفكك الداخلي في مصر والشام آنذاك. وحينما وطَد عماد الدين زنكي مركزه السياسي والعسكري تجسد فيه وفي دولته نموذج الدولة العسكرية التي يقودها أمراء مقاتلون لقيادة المسلمين في صراعهم المصيري. وقد إستطاع عماد الدين

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص 10.
[2] المرجع نفسه، ص 11.

زنكي أن يخضع المنطقة بين الموصل وحلب لسلطانه، وما لبث أن صار أقوى حاكم مسلم في زمانه لأنه طوّع قوته وسلطانه في خدمة المطلب الشعبي العام أي الجهاد ضد الصليبيين.

وقد استطاع عماد الدين زنكي التغلب على النعرات الإنعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة وتمكن من الإستيلاء على حلب مما كان له أكبر الأثر في تدعيم الجبهة الإسلامية وقيام محور الموصل/ حلب الذي شكل خطراً دائماً على الوجود الصليبي لأنه قطع الصلة بين إمارة الرها الصليبية وغيرها من المستوطنات الصليبية في بلاد الشام. كما تمكن من الإستيلاء على حمص وديار بكر في سنة 1143م وبذلك أصبح الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين[1].

أخذ عماد الدين زنكي على عاتقه مهمة إقامة جبهة إسلامية موحدة وعمل على رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، وبالفعل إستطاع إنزال الهزائم بهم. وفي سنة 1144م تمكنت قواته من إستعادة إمارة الرها الصليبية بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً فقط. وكانت الرها أول كيان صليبي نجحت الحملة الصليبية في إقامته في أرض الشرق الإسلامي ليدق بذلك أول مسمار في نعش الصليبيين، وكان سقوطها صدمة مؤلمة للصليبيين ونذير شؤم بالنسبة لهم وللغرب الاوربي. وكان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي كسباً كبيراً على المستوى العسكري إذ أعاد لمنطقة وادي الفرات كلها طابعها الإسلامي الخالص وضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط شمال الشام والعراق والجزيرة ببعضها. وفي سنة 1144م قام الصليبيين بمحاولة فاشلة لإستعادة الرها من أيدي المسلمين ولكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي قضى على هذه المحاولة وبذلك إنتهى الضغط الصليبي على مناطق أعالي الفرات[2].

كانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل/ حلب هي السابقة التاريخية أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية ، كما كانت هي البذرة التي نمت منها شجرة الدولة الأيوبية.

وعندما توفي عماد الدين زنكي جعل إبنه الأصغر على القسم الغربي أتابكيته ومقره مدينة حلب ، فسار على نفس النهج الذي سار عليه أبوه وعزز توجيهات دولته

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 10.

[2] عصام شبارو: مرجع سابق، ص 121.

العسكرية الساعية إلى توحيد الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين. وتصفية الممتلكات الصليبية سواء ما كان منها في الشمال حيث أخذ في تحطيم إمارة أنطاكية أو في الجنوب حيث أخذ في تضييق الخناق على صليبيي بيت المقدس وطرابلس. ثم نجح نورالدين محمود في ضم دمشق إلى ممتلكاته سنة1154م، مكرساً بذلك نموذج الدولة العسكرية التي باتت حقيقة تاريخية واقعة في ظل قيادة صلاح الدين الأيوبي[1].

لقد قامت دولة صلاح الدين الأيوبي على أساس أن الحرب ضرورة من ضرورات الوضع السياسي في المنطقة. وكان مبرر قيام هذه الدولة هو دورها التاريخي في تصفية العدوان والوجود الصليبي. وكان هذا الدور التاريخي للدولة العسكرية يتطلب إعادة صياغة البنية السياسية والإقتصادية والإجتماعية في المنطقة العربية على أساس أن الحرب ضرورة دائمة من ضرورات الحياة في ذلك العصر وهو ما يعني ضرورة إقامة نظام قادر على تعبيئة الجيوش وتمويل عملياتها العسكرية بالشكل الذي يجعلها دائمة الإستعداد للقتال وهذا ما اكسبها الشرعية في عيون رعاياها، وهكذا تمت صياغة واستكمال النظام الإقطاعي الذي بلغ قمة تطوره في العصر الأيوبي ثم في عصر سلاطين المماليك[2].

وتم توحيد الجبهة الشمالية ضد الصليبيين فصارت مركز ضغط شديد عليهم فاتجهت الأنظار إلى مصر التي كانت في أخطر مراحل ضعفها بسبب تدهور أحوالها الإقتصادية بفعل الأزمات والكوارث الإقتصادية المتوالية وتمكن منها الضعف السياسي بسبب تنازع الوزراء على السلطة. وتسابق المسلمون والصليبيون على ضم مصر بمواردها الإقتصادية والبشرية الكبيرة لحسم الصراع بين الجانبين[3].

وفي سنة 1150م هاجم الصليبيون غزة مما كشف بوضوح عن إتجاهم ضد مصر وكان إستيلاءهم على عسقلان آخر المعاقل المصرية في الشام سنة 1153م تاكيداً لهذا الإتجاه الذي لفت إنتباه نور الدين محمود، وحين هاجم الصليبيين العريش سنة 1161م كان ذلك تعبيراً عن إختلال موازين القوى على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين.

---

[1] عصام شبارو: مرجع سابق، ص 122.

[2] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص 11.

[3] حمدي عبد المنعم حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، 1998، ص 10.

نشأة الدولة الأيوبية

يُعدّ تاريخ الدولة الأيوبية التي امتدت حوالي ثلاثة أرباع القرن (1171–1250م) من أهم المراحل التي عرفها المشرق العربي الإسلامي الذي واجه حملات صليبية متتابعة على يد أقوى ملوك غرب أوربا ، والتي تجلّت فيها فكرة السيطرة والتوسع بأوضح صورها، كما تعتبر مرحلة صلاح الدين مؤسس هذه الدولة من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية لما قام به من دور في مواجهة أعداء هذا المشرق[1].

وقد تمخضت الأحداث التي مر بها المشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عن ميلاد الدولة الأيوبية. وتمثلت تلك الأحداث في ذلك الخطر الخارجي الذي تعرضت له بلدان الشرق الإسلامي وأعني به الغزو الصليبي لبلاد الشام ، كذلك ما شهدته الديار المصرية من فوضى واضطراب أواخر الدولة الفاطمية وما نشب من صراع مرير بين الوزراء خاصة بين شاور وضرغام[2].

ويختلف المؤرخون حول تاريخ إبتداء الدولة الأيوبية فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة من الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله في سنة1169م. والبعض يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي والتي تلاها وفاة العاضد لدين الله وإنهاء الخلافة الفاطمية سنة 1171م. وصحيح أن سلطة صلاح الدين بدأت منذ توليه الوزارة ليدعمها بخطوة القضاء على الخلافة الفاطمية، لكنه من الناحية الشرعية كان لا يزال تابعاً لسلطة نور الدين محمود الذي ما لبث وأن توفى سنة 1174هـ. لذلك فإن سنة الوفاة هذه تعتبر تاريخ إبتداء الدولة الأيوبية وذلك عندما إعترف بها الخليفة العباسي المستضئ بالله سنة 1175م. كما يمكن إعتبار الخمس سنوات التي سبقت وفاة نور الدين بمثابة تأسيس الدولة الأيوبية في مصر[3].

وتنسب الدولة الأيوبية إلى صلاح الدين الأيوبي بن نجم الدين أيوب بن شادي الذي ولد في سنة 1138م بمدينة تكريت على نهر دجلة وينتمي إلى أسرة كردية من الأحرار امتجزت بالعروبة التي كانت في ذلك الوقت عروبة الأحاسيس والمشاعر والحضارة ،

---

[1] ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية، دار الشروق، ط1، 1993، ص 142.
[2] علي محمد الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة إقرأ للنشر، القاهرة، 2007، ص 218.
[3] تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول القسم الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، 1936، ص85.

وقد رحل أبوه نجم الدين بصحبة أخوه أسد الدين شيركوه من بلدتهما وقصدوا العراق وخدما الأمير مجاهد الدين بهروز الذي كان يشغل منصب شحنة لمدينة بغداد من قبل السلاطين السلاجقة ففوض إلى نجم الدين أيوب قلعة تكريت القائمة بين بغداد والموصل وجعله حاكماً عليها فظل على ذلك أعواماً طويلة[1].

ثم أخذ بهروز يتنكر لنجم الدين شيئاً فشيئاً حتى حدث لنجم الدين ما استوجب عزله حيث بلغه أن أخاه أسد الدين شيركوه قد قتل أحد الضباط لمشادة جرت بينهما فعزل مجاهد الدين بهروز نجم الدين نتيجة لذلك، وأرسل إليه يأمره بتسليم القلعة إلى عامل آخر والخروج مع أهله من تكريت. وفي ليلة خروجه منها ولد له الناصر صلاح الدين يوسف وقد قال أبوه: فتشاءمت به لفقدي بلدي ووطني. فقال له بعض الناس: قد ترى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود فما يدريك أن يكون هذا المولود ملكاً عظيماً له صيت؟ فكان كما قالوا[2].

توجه نجم الدين نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين فخدما عماد الدين زنكي فأحسن إليهما وقربهما وبالغ في إكرامهما وأقطعهما أرضا يعيشان منها وكان ذلك في عام 1138م، وقابل الأخوان هذه المكرمة بما تستحقه من عرفان الجميل فخدما في جيش عماد الدين وأخلصا له الخدمة وأحرزا إنتصارات عديدة، فلما سقطت بعلبك في يديه سنة 1139م ، عهد بإدارتها إلى نجم الدين أيوب فأقام بها إلى أن قتل عماد الدين زنكي سنة 1146م[3].

وحين استولى نور الدين على دمشق في سنة 1154م صحب صلاح الدين أباه إلى بلاط نور الدين وكان عمره حينئذ سبعة عشر عاماً، واستمر بدمشق والنجابة تقدمه من حال إلى حال ونور الدين يرى منه ذلك فيؤثره ويقدمه ويعتمد عليه في بعض الإمور ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه محدثات تقتضي تقدمه إلى ما هو أعلى حتى ولاه نور الدين دمشق في سنة 560هـ، ولكنه لم يكن رئيساً صاحب أمر مطلق بل كان عليه أن يتقيد برأي القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي يشرف على منصبه بحكم النظر في المظالم والبت فيها[4].

---

[1] إبن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979، ج 11، ص 341.
[2] عصام عبد الؤوف الفقي: ادولة الاسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987، ص 210.
[3] ابو الفداء الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، ج12، ط5، دار الحديث، القاهرة، ص 293.
[4] بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف، ط1، 1964، ص 6.

وقد شهدت سنة 1162م صراعاً عنيفاً على منصب الوزارة بين ضرغام بن عامر اللخمي وشاور بن مجير السعدي الوالي على مصر العليا فانتصر ضرغام وتقلد الوزارة وأرغم شاور على الهرب فانطلق من مصر إلى الشام مستنجداً بنور الدين محمود طالباً مساعدته في إستعادة منصبه والتخلص من الحملة الصليبية لأن ضرغام كان قد لجأ إلى أموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي فعقد معه حلفاً وطلب منه إرسال جيوشه إلى مصر. فسارع إلى تلبية طلبه ووجه جهوده تجاه المشكلة المصرية ، كما أدرك الخليفة الفاطمي خطورة الموقف وأرسل أيضاً إلى نور الدين يعرض عليه ثلث خراج مصر إذا هو أنقذه من الصليبيين وبأن يكون نائبه فيها ويتصرف على أمره ونهيه واختياره وأرسل له في الكتب شعر نساءه وقال: هذا شعر نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فتردد نور الدين محمود في أول الأمر ولكنه قرر تلبية طلب شاور لخوفه على عساكره من الصليبيين لسيطرتهم على الطريق الموصل بين نورالدين والديار المصرية[1].

والواقع أن نور الدين كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر فلم يكد يسمع بعودة الملك عموري والصليبيين إلى مصر إلا وأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر وقد أخذ نور الدين يتخوف من تردد الصليبيين على مصر، وأدرك أن شاوراً يلعب بهم تارة وبالإفرنج تارة أخرى ولذلك قرّ رأيه على أن يتخذ موقفاً حاسماً من المسألة المصرية إنقاذاً للموقف[2].

وقد وجد طلب شاور هوىً وقبولاً في نفس أسد الدين شيركوه قائد نور الدين وعم صلاح الدين، وحث مليكه نور الدين على نجدته فقبل بعد تردد يسير وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه في تلك الحملة الجديدة وكان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، وكان جيش أسد الدين أقل من جيش مصر ولكنه أقوى روحاً وأشد إقداماً، كما كان يمتاز بشجاعة قواده وقد أبدى هذا الجيش مهارة كبرى في دحر الجيوش المصرية ومحاصرة ضرغام في القاهرة[3].

---

[1] شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي، المؤسسة المصرية، القسم الاول، 1992، ص 333.

[2] عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين بطل حطين، الطبعة السادسة ، دار السلام للطباعة ، 1985م ، ص 28.

[3] ابن شداد: مصدر سابق، ص36.

وقد تمنّع صلاح الدين في بادئ أمره عن الخروج في هذه الحملة فيروي إبن شداد: أن صلاح الدين قال: كنت أُكرِه الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي بإختياري ، وهذا معنى قوله تعالى: (وعَسَى أن تكرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيرٌ لكُم....*)[1].

ولكن خرج صلاح الدين نتيجة لإجبار مخدومه نور الدين ولم يكن نور الدين يعلم أن صلاح الدين هذا سيكون منافسه في المستقبل وأنه سيشعل ثورة مصر للوقوف في وجهه وأنه سيرثه في دولته. كما أن صلاح الدين جاء إلى مصر كارهاً دون أن يدري أنه على موعد مع القدر وأن نجمه لم يلبث أن يتألق في تلك البلاد. وبعبارة أخرى أحب نور الدين سير صلاح الدين وفيه ذهاب ملكه وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه. وهكذا شاء القدر أن يدفع بالعاهل الصليبي إلى تلك المغامرة الحمقاء لتكون فاتحة عهد جديد في تاريخ ذلك الصراع العنيف ينجز فيه نور الدين رسالة الوحدة بين بلدان الشرق العربي ، ويسلمها إلى بطل جديد يتنقل ببلاد العرب والإسلام من طور الدفاع إلى طور التحرر[2].

إنتهى الأمر بإنتصار حملة شيركوه الثانية وعودة ملك بيت المقدس من غير حرب ولا قتال ، وقد وصل شيركوه إلى القاهرة في 5 يناير 1169م ، وفرح به أهل مصر واستقبل خير إستقبال فاستدعاه الخليفة الفاطمي العاضد إلى القصر وخلع عليه الوزارة ولقبه بالمنصور أمير الجيوش وأخذ أرباب الدولة يترددون إلى خدمته كل يوم وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة[3].

أدرك شاور أن بقاء أسد الدين شيركوه سيؤدي في النهاية إلى القضاء على نفوذه وسلطانه، بل أن شاور أخذ يماطل شيركوه في دفع ثلث خراج مصر في انتظار وصول الصليبيين لنجدته، وقرر شاور إقامة وليمة يدعو إليها شيركوه وقواده ثم يقضي عليهم، فنهاه إبنه الكامل وقال له: (والله لئن عزمت على هذا الأمر لاعرَّفَن أسد الدين) فقال شاور: (والله إن لم نفعل هذا الأمر لنقتلن جميعاً) فقال الكامل: (صدقت ولئن نقتل جميعاً ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج وليس

---

* سورة البقرة، الاية 261.

[1] ابو شامة: مصدر سابق، ص 393.

[2] ابن الاثير: مصدر سابق، ج 11، ص 338.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1963، ج6 ، ص51.

بيننا وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على أسد الدين شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملك الفرنج البلاد)[1].

إنتهى تفكير شيركوه إلى ضرورة التخلص من شاور أيضاً لأنه أدرك أن الفرنج ينتهزون أي فرصة للعودة إلى مصر وأخيراً إجتمع أعيان الدولة بمصر عند شيركوه وقالوا له: (شاور فساد البلاد والعباد وقد كاتب الفرنج وهو سيكون سبب هلاك الإسلام) وطلبوا بقتله[2].

فتشاور صلاح الدين والعسكر على الإطاحة به والقبض عليه فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين فأخذ بتلابيبه وأمر العسكر بأخذ أصحابه ففروا عن شاور وسيق إلى المخيم وقتل وحمل رأسه إلى قصر الخلافة واستقر أسد الدين شيركوه بعده في وزارة العاضد ودام آمراً وناهياً وأطلق يده في شئون مصر فأقطع جنوده الإقطاعات الواسعة وعيّن على البلاد من الولاة من يثق بهم من أصحابه والمقربين إليه. وتمت إليه بذلك السيطرة على مصر دون عناء بعد قتل شاور وولده الكامل في يناير سنة 1169م[3].

لم يستمر شيركوه في الوزارة طويلاً إذ داهمه المرض بعد شهور فتوفي, واستدعى الخليفة الفاطمي صلاح الدين ليجني ثمرة غرسه وهو في سن الثانية والثلاثين، وقد نعته العاضد بالملك الناصر وتمكن صلاح الدين في مصر فقدم عليه أبوه نجم الدين وأخوانه وأهله[4].

وقد تمنّع صلاح الدين يوسف عن قبول منصب الوزارة ولكنه ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة وذلك على الرغم من المنافسة التي لقيها من كبار الأمراء النورية الذين تطلعوا إلى الوزارة عقب وفاة شيركوه مثل عين الدولة الباروقي وقطب الدين خسرو وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الخارمي ، إلا أن الخليفة العاضد أصرّ على إختيار صلاح الدين، وذلك لِما كان يظنه منه من الضعف لقلة وضعف عسكره وصغر سنه وظن إذا ولاه يكون مستضعفاً ورهن طوعه وإشارته ولا يجسر على مخالفته فتعود له السيطرة الكاملة على مصر. وكانت العادة قد جرت بأن يطلق على الوزير لقب كبير يعرف به فسمى صلاح الدين (بالملك الناصر

---

[1] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص 20.
[2] ابن الأثير: مصدر سابق، ج11، ص340.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص64.
[4] دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد بغداد، 1976م.

أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب) ولكن غلب عليه إسم السلطان دون أن يتلقب به[1].

ولم يكد صلاح الدين يتولي الوزارة حتى انفض من حوله أولئك الأفراد الذين كانوا يريدونها لأنفسهم، فذهب إليهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وقابل إبن المشطوب وأماله إليه وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة الياروقي وشهاب الدين الحارمي إبن تليل وأخذ يجادله حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي وقال له: هذا صلاح الدين هو إبن أختك وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه منه، وعزه وملكه لك، فإنه قد لا يصل إليك، فمال إليه أيضا، ثم فعل هذا مع الباقين فأطاعوه جميعهم إلا عين الدولة الياروقي[2].

وعندما آلت إمور الدولة إلى صلاح الدين إستاء مؤتمن الخلافة رئيس قصر الخليفة الفاطمي منه، فدبّر مؤامرة للقضاء عليه وحاول أن يتصل بعموري الأول ملك بيت المقدس والصليبيين فكتب إليهم بالزحف لمصر فإذا خرج صلاح الدين للقائهم سارعوا بالقبض على رجاله وأعوانه بالقاهرة، وتكون مصر بعد ذلك مناصفة بينهم وبين الفرنج، فوقعت رسالته إليهم في يد صلاح الدين الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره فقتل مؤتمن الخلافة فوراً في 20 اغسطس سنة 1169م[3].

فلما علم الجند السودان بما حدث لمؤتمن الخلافة ثاروا وكانوا يزيدون على خمسين ألفا فأرسل إليهم صلاح الدين قائده أبا الهجاء الثمين حيث وقعت الحرب بين الفريقين واشتد القتال بينهما ولجأ صلاح الدين إلى إشعال النار في محلتهم التي اعتصموا فيها والتي تعرف بالمنصورية، فطلبوا الأمان فأجيبوا إلى ذلك وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية للنيل، فعبر إليهم الملك العظيم توران شاه في طائفة من الجند فأبادهم ولم يبق منهم إلا القليل. وبذلك تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح إعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمي[4].

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة في تلك المرحلة بوصفه نائبا عن نور الدين لا بإسم الخليفة الفاطمي بوصفه وزيراً له. وقد أدت هذه السياسة إلى إحتفاظ

---

[1] محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص132.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص 17.
[3] ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، دار العلم، القاهرة، تحقيق جمال الدين الشيال، ج1، ص 174.
[4] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص 347.

صلاح الدين حتى ذلك الوقت على الأقل لعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه أو حسده نتيجة للحوادث السريعة التي دعم بها سلطانه في مصر حتى أعطاه نور الدين لقب أمير وكاتبه بلقب الأمير الأسفهسلار*[1].

والواقع أن صلاح الدين كان لا يمكنه أن يستغنى عن معونة نور الدين في ذلك الدور المبكر من حياته العملية لا سيما وأن الموقف أمامه كان مليئا بالصعاب في حين كان الصليبيون قد نزلوا على دمياط يريدون إحتلالها، وكانت دمياط كما يقول بن واصل (عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية) وكان ذلك في نوفمبر سنة 1169م. فلما علم صلاح الدين بإتجاه الفرنج إلى دمياط سارع بإرسال إبن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين الحارمي وتابع إليهما الإمدادات والنجودات في البحر وأمدهما بالسلاح والذخائر فصدت عساكره قوات الصليبيين. ولما واصل الصليبيون حصار دمياط وضايقوها أرسل صلاح الدين ألى نور الدين يستنجده على الصليبيين ويطلب منه أن يرسل مدداً من الجيش ويشكو إليه من صعوبة موقفه فلو أنه خرج إلى دمياط فقد يثير رجال القصر وأتباع الفاطميين الفتن والثورات، ولوا أنه بقى في القاهرة فقد ينجح الصليبيون في الإستيلاء على دمياط ويجعلونها معقلاً لهم يتقوون بها على أخذ مصر. فكان يسير إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً ولم يكتف نور الدين بذلك بل سار بنفسه على رأس جيوشه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها. وكان هدفه أن يشغل أنظار الصليبيين عن دمياط ويدفعهم لحماية أملاكهم[2].

ولما رأى الصليبيون تتابع الإمدادات إلى دمياط من القاهرة والشام ودخول نور الدين إلى بلادهم، قرروا الإنسحاب بعد حصار دام خمسين يوماً فرجعوا غير ظافرين بشيء ووجدوا بلادهم خراباً وأهلها بين قتيل وأسير. وقد أنفق صلاح الدين أموالاً عظيمة خلال هذا الحصار الصليبي على دمياط وذكر عنه أنه قال: (ما رأيت أكرم من العاضد أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب

---

* أسْفَهْسَلار: معناه مقدم العسكر وهي وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند وصاحبها زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد وهي كلمة أعجمية معناها قائد الجيش. وكان صاحب هذه الوظيفة في عهد حكم الترك بمصر يسمى ساري عسكر وفي زماننا يسمى سردارا / القلقشندي: مصدر سابق، ج 3، ص 554.

[1] ابن الاثير: مصدر سابق، ج 11، ص 344.

[2] أبو الفداء بن كثير: مصدر سابق، ج12، ص281.

وغيرها) وسيَر صلاح الدين الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج كما كتب نور الدين محمود إلى الخليفة العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط[1].

وهكذا أدت حملة عموري الأول على مصر سنة 1168م إلى خلق موقف جديد بالنسبة للصليبيين وإنزال أبلغ الضرر بمصالحهم ومستقبلهم في بلاد الشام. ذلك أن الحملة وصلت إلى مصر والإنقسام المذهبي والسياسي على أشدّه بين الشام ومصر، كما كانت الخلافة الفاطمية في حالة تبعية فعلية لمملكة بيت المقدس وكانت مصر دولة ضعيفة تحكمها خلافة منحلة ولا تشكل خطراً كبيراً على الصليبيين بالشام، إذ بها تتحول بسرعة بعد سنة 1168م لتصبح مركز المقاومة الإسلامية ضد الخطر الصليبي. والزاوية المنيعة التي خرجت منها جيوش الأيوبيين للقضاء على ذلك البناء الذي أقامه الصليبيون وسط محيط إسلامي واسع غريب عنهم دخلاء عليه[2].

ولما تحقق الملك العادل نور الدين محمود من ضعف الدولة الفاطمية كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي، وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ بنور الله ولكن صلاح الدين يرجي ويماطل تجنباً لفتنة لا تعرف نتائجها إلى أن أرسل له نور الدين إنذاراً نهائياً في صيف سنة 1171م، يأمره بإحلال إسم الخليفة العباس محل إسم الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة، ويلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه[3].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين نارين ، الوقوع في أزمة مع نور الدين أو التعرض لثورة الشيعة في مصر، ولكنه وجد أن الحل الثاني أخفّ وطأة ، ثم اتفق أن مرض الخليفة العاضد فاستشار صلاح الدين الأمراء في قطع الخطبة فانقسموا بين مؤيد ومعارض ولكن صلاح الدين لم يكن أمامه إلا تنفيذ أوامر نور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد الفاطمي، وقد تصادف وجود رجل موصلي في مصر يعرف بالأمير العالم فلما رأى ترددهم قال: (أنا لها أيها الأمير)[4].

وأخيراً تمّ الإنقلاب فدعي في القاهرة في سبتمبر 1171م ، للخليفة العباسي المستضئ بنور الله وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعي إلى المذهب السني[5].

---

[1] عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، الكتاب الناشر، 1964م ، ص 164.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط 2، الأنجلو مصرية، 1963، ج 2، ص 682.

[3] جمال الدين محمد بن سالم بن واصل: مصدر سابق، ص 164.

[4] قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي قصه الصراع بين الشرق والغرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت الطبعة الاولى 1992م، ص 213.

[5] صابر محمد دياب: تاريخ وحضارة مصر الإسلامية مذ الفتح الإسلامي حتى انتهاء العصر الفاطمي 642-1171م، القاهرة،1990، ص 157.

وقد عبّر إبن خلدون عن زوال الدولة الفاطمية: (حتى إذا أدرك الدولة العبيدية الفشل والوهن وطرقها الإعتدال ، مدّ النصاري أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية ثم ألحّوا على بيت المقدس وغلبوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وصور وعسقلان واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام)، تعذر عليها بالتالي الإحتفاظ بما تبقى لها من سلطان في الحوض الشرقي للبحر المتوسط)[1].

ولا شك أن سقوط الخلافة الفاطمية في مصر لم يكن مجرد إنقلاب عادي وإنما كان حدثاً له أهميته في تاريخ العالم الإسلامي فها هي دولة الفاطميين في مصر تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً لتعود للإسلام وحدته المذهبية وتصبح الخلافة العباسية هي الوحدة التي يدين لها المسلمون بالولاء الديني ولم تلبث أن أقيمت الإحتفالات في بغداد تعبيراً عن شعور الفرح بذلك النصر العظيم الذي تحقق للخلافة العباسية، وأسرع الخليفة العباسي المستضئ إلى إرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ومعها الأعلام السوداء والرايات السود شعار العباسيين[2].

وكان نجاح صلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر بداية لوحشة بينه وبين سيده نور الدين وكادت تلك الوحشة والجفوة ان تؤدي إلى إخراج صلاح الدين من مصر لولا وفاة نورالدين محمود في مايو 1174م، وقد أتاحت هذه الوفاة لصلاح الدين الفرصة للإنفراد بحكم مصر. ومن هنا يمكننا القول بأن قيام الدولة الأيوبية يبدأ بوفاة نور الدين محمود[3].

ثم ما لبث الموت أن أنقذ صلاح الدين من خصم قوي آخر هو الملك آموري الذي توفي في نفس الشهر الذي توفي فيه نور الدين تاركاً الملك من بعده لولده الصغير بلدوين الرابع الذي عرف في التاريخ بلقب بلدوين المجذوم[4].

وعلى أثر ذلك اتسع أمام صلاح الدين الأمل لتحقق أحلامه وآماله التي تراوده بل وتعاوده بإلحاح إذ لم يبق من يستطع الوقوف في طريقه إليها، ثم قرر صلاح الدين المسير إلى الشام لتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي شجعه على ذلك إنقسام الدولة النورية عقب وفاة نور الدين محمود فضلاً عن التنافس بين قواد قيادة

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: تاريخ بن خلدون، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات،1971, بيروت، ط5، ص 284-285.
[2] أحمد عطية رمضان: العلاقات بين الدولتين الفاطمية والأيوبية والمدن الإيطالية، رسالة دكتوراة، القاهرة، 1984، ص 106.
[3] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص 30.
[4] قدري قلعجي: مرجع سابق ، ص 225.

الدولة للسيطرة على الملك الصالح إسماعيل واتجاه بعضهم إلى عقد الصلح والهدنة مع الصليبيين. وقضى صلاح الدين خمسة عشر عاماً يعمل على جمع الشمل وتوحيد الأجزاء المتفرقة. واستطاع أخيراً أن يكوّن جبهة إسلامية متحدة تمتد من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً، وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضئ يقول فيه: (.... ولو أن إمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عزّ علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا ان تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما إمور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة، فإذا صح التدبير ، لم يحتمل في اللقاء الا العدة)[1].

لم يتوقف صلاح الدين عن مناوشة الصليبيين أثناء توحيد مصر وبلاد الشام وذلك من أجل منع قيام تحالف بينهم وبين الأمراء الذين تصدوا له في محاولته التوحيدية. فكانت معاركه مع الصليبيين بمثابة عمليات دفاعية يتخللها من حين لآخر عقد المعاهدات. وتعتبر هذه المعاهدات من العوامل التي ساعدت صلاح الدين في بث التفرقة في صفوف الصليبيين[2].

والواقع أن صلاح الدين لم يدخل في حرب مكشوفة ضد الصليبيين الا بعد أن إنتهى من توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية عام 1183م وذلك عندما نقض أرناط صاحب الكرك الهدنة المعهودة بينه وبين صلاح الدين وتعرّض لقافلة إسلامية ونهبها وزجّ بأفرادها في حصن الكرك فأرسل صلاح الدين إلى أرناط مقبحاً أعماله ويتهدده إن لم يطلق سراح الأسرى ولكن أرناط امتنع من إجابة السلطان وأبى الا الإصرار والإضرار[3].

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا القصاص والحرب. وهي الحرب التي جاءت قاضية على الصليبيين وآمالهم في البقاء بالشام بعد أن اختار أرناط أسوأ الظروف والأوقات للصليبيين لإستثارة صلاح الدين الذي أخذ يقوم إستعداداته على قدم وساق لإعطاء الصليبيين درسا قاسياً لم ينسوه[4].

---

[1] أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1967م، ص 85.
[2] بن الأثير: مصدر سابق، ج11، ص 527.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص 92.
[4] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص799.

وفي صبيحة يوم السبت4 يوليو 1187م تجمع المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي واقتربوا من الصليبيين وكان حالهم قد إزداد سوءاً بعد أن اشتد بهم العطش وكان جيشهم زهاء الخمسين ألفاً او يزيدون وقيل ثمانون ألفاً ما بين فارس وراجل، ودارت رحى المعركة بين الفريقين وحمي وطيس القتال فألتحمت السيوف واشتبكت الرماح وتقارعت العصى وارتفع الصليل والصهيل والصراخ وصلاح الدين يكر تارة على هذه الجماعة ويكر تارة أخرى على تلك او يعود إلى صفوف جنوده ينظمهم ويحثهم على الإقدام والإستبسال حتى أنهكوا قوى العدو الذي كان قد دخل ميدان المعركة يلهث من الظمأ منهوكاً من السير في السهول في حر منتصف الصيف المحرق[1].

وكان منظر الصليبيين وهم يرقدون على الأرض جرحى وقد تورمت أفواههم يثير من بالغ الألم ما حمل خمس فرسان من الصليبيين على التوجه إلى قادة المسلمين يتوسلون أن يجهزوا عليهم حتى ينتهي عذابهم ومن ورائهم أعداد هائلة تتهافت على الأسر حتى لقد رؤي جندي من جنود حوران يجر في حبل خيمة نيفاً وثلاثين أسيراً حملهم وحده ونظمهم في الحبل لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان حتى رؤي المائة والمئتان قد إجتمعوا في مكان واحد تحت حراسة جندي فرد[2].

ثم أتى السلطان بعد ذلك بالداوية والإسبتارية فعرض الإسلام عليهم ، فمن أسلم منهم إستبقاه ومن لم يسلم قتله ، وبعث بباقي الملوك والأسارى إلى دمشق فباعوهم بثمن بخس حتى باع بعض الفقراء أسيراً بنعل[3].

وحلت الهزيمة الساحقة بالصليبيين فوقعوا بين أسير وقتيل وهكذا قضت وقعة حطين على قوى الصليبيين التي تجمعت حول التل بحطين وتخطت في سرعة مذهلة ذلك المكان إلى كل الأمكنة حوله من قريب أو بعيد ولم يصيب الصليبيين ولا وقعت بهم كريهة منكرة منذ خرجوا إلى الشام في سنة 1096م أشد وأدهى مما وقع في حطين. وقد اتفق رواة العرب ورواة الفرنجة على هول الكارثة فقال ابن الاثير: (إن من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى) ويقول أيضاً: (لقد إجتزت بموقع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الارض ملأي من عظامهم

---

[1] Philip K. Hitti: The History of the Arabs, Macmillan & co Limitd , Martin's Stret , London ,1898 , pp 647

[2] بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، بيروت لبنان، دار النفائس، ط 2، 1978، ص 90.

[3] محمود رزق محمود: العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة بالخرطوم، 1973، ص 160.

تبين على البعد منها المجتمع على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جرفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد[1].

ثم اتجه صلاح الدين بعد حطين ألى مدن الساحل أولاً لكي يمنع أي مدد من الوصول إلى بيت المقدس لكي يسهل عليه الإستيلاء حينما يقصده ولكي يؤمن مواصلاته البحرية مع مصر التي تأتيه منها بعض المؤن والإمدادات وليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وبخاصة الغرب الأوروبي ليصبحوا محصورين داخل الشام، فكانت تتساقط كما تتساقط أوراق الخريف الجافة.

وبعد ذلك كان لابدّ لصلاح الدين أن يتوج إنتصاراته الرائعة على الصليبيين بالعمل على استرداد بيت المقدس الذي انتزعه الصليبيون من المسلمين في الحملة الصليبية المعروفة بالأولي وفعلاً أعدّ صلاح الدين العدة لاسترداد بيت المقدس بعد أن استولى على عسقلان وما جاورها وتجمعت قوى الإسلام بروحها المعنوية وقواتها المادية[2].

سار صلاح الدين إلى بيت المقدس ودخلها في عام 1187م بعد أن عجز كل من الخليفة العباس في بغداد والخليفة الفاطمي في القاهرة عن فعل أي شئ إزاء سقوطه بأيدي الصليبيين مما أكد أن الدور التاريخي لدولة الخلافة ونموذجها السياسي كانا قد تجمدا منذ فترة، وعجزت الخلافتان عن مواجهة التحدي الذي فرضه العدوان الصليبي[3].

بدأ القتال بين الطرفين على أشدّ ما يكون وفي أثناء القتال حمل المسلمون حملة رجل واحد فأزالوا الصليبيين عن مواقعهم وأضطروهم إلى دخول المدينة وحينئذ اضطر الصليبيون أن يرسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الأمان وتسليم القدس بشرط إحترام من بالمدينة من الصليبيين وبالسماح لمن يشاء بمغادرتها فأعطاهم صلاح الدين الأمان وبدأوا يغادرون القدس من ذلك اليوم نفسه[4].

ومن غير شك فإن عام 1187م كان عام نصر وفتوحات وعام خير وبركة على المسلمين، وقد بلغ عدد البلاد التي فتحها صلاح الدين هذا العام وحده حوالي إثنين وخمسون مدينة. كما أنه خلص من الأسر أكثر من ثلاثين ألف أسير مسلم ووقع في الأسر من الصليبيين حوالي مائة ألف أسير، وهذه دلالة واضحة على أن صلاح الدين

---

[1] ابن الاثير: مصدر سابق، ج11،ص 229.

[2] أحمد فؤاد سيد: تاريخ مصر الاسلامية زمن سلاطين بني ايوب 567- 648هـ، مكتبة مدبولي بالقاهرة، 2002م ، ص 157.

[3] عماد الدين الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبيح، القاهرة ، 1965، ص 125.

[4] عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، الكتاب الناشر، 1964، ص 167.

لم يترك ساعة دون أن يستفيد منها في مجاهدة الصليبيين ومصابرتهم والعمل على استرجاع البلاد والتخلص منهم. وحقيقة أن صلاح الدين كان في أوائل عام 1189م قد وصل إلى قمة مجده السياسي والعسكري وهو المجد الذي عبر عنه هو شخصياً بعبارة وردت في خطابه إلى أخيه سيف الدين طغتكين نائبه باليمن ونصها: ((أن بلاد الشام اليوم لا يسمع فيها لغواً ولا تاثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاما) ومعنى ذلك أنّ صلاح الدين استطاع أن يحرز نصراً كبيراً على العدو الصليبي في الميدان الخارجي[1].

وفي مارس سنة 1193م توفي صلاح الدين الأيوبي وكان عمره يوم مات نحواً من سبع وخمسين سنة، وحينما توفى كانت الظروف التاريخية التي أفرزت زعامته ما تزال قائمة في المنطقة العربية، إذ كان الصليبيون موجودين فيما بقي من المناطق التي احتلوها. وكان خطرهم ما يزال ماثلاً يتهدد المنطقة العربية. وجاءت الأحداث السياسية والعسكرية التي شغلت مسرح التاريخ في تلك الفترة لتمد في عمر الكيان الصليبي مائة سنة وأكثر، إذ أن خلفاء صلاح الدين ورثوا مملكته الكبرى ولكنهم لم يرثوا دوره السياسي أو مكانته في قلوب الناس فكانت حياته نهاية مرحلة تاريخية وبداية مرحلة أخرى.

[1] نعمان الطيب: منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط1، مطبعة الحسين الاسلامية، 1991، ص 235.

الفصل الثاني

الصراع الأيوبي الصليبي في عهد أبناء صلاح الدين والسلطان العادل سيف الدين
589 -615هـ / 1193 – 1218م

- ✓ احوال الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي
- ✓ العادل والصليبيون
- ✓ الحملة الصليبية الخامسة ضد مصر سنة 1217م

الصراع الأيوبي الصليبي في عهد أبناء صلاح الدين والسلطان العادل سيف الدين

إقتسم المُلك بعد صلاح الدين الأيوبي أولاده الثلاثه فكان الملك العزيز عثمان في مصر والملك الظاهر غازي في حلب والملك الأفضل في دمشق. ولم يلبث أن قام النزاع بين الإخوة الثلاثة ووقف عمهم العادل عن كثب يراقب الأحداث ويتدخل بذكائه ليمهد للإمور حتى تصل إلى نتيجتها المحتومة، حتى استوي الأمر إستعان بالأمراء الأسدية حتى اختاروه أتابكاً للطفل الصغير الملك المنصور إبن الملك العزيز صاحب مصر. ثم لم يلبث أن عزله وتولى العرش مكانه وأعاد للدولة وحدتها كما كانت أيام أخيه صلاح الدين.

وصلت أنباء هذا النزاع إلى الغرب الأوربي، ففكر المتحمسين على القيام بحمله صليبية جديدة تسترد بيت المقدس من المسلمين، ولكن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة السلطان العادل جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتوجهوا نحو حصار بيت المقدس فيعرضون أنفسهم للوقوع بين فكي كماشة أي بين قوات العادل التي تخرج من مصر وتلك التي تنفذ من دمشق، لذلك إستقر رأيهم أن تكون مصر مقصد الحملة الصليبية الرابعة، ولكن لأسباب إقتصادية إنحرفت تلك الحملة إلى القسطنطينية واستولى عليها الصليبيون سنة 1204م.

أدى ذلك إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام لذلك دعا الملك حنا دي برين ملك بيت المقدس جموع الصليبيين الذين وفدوا إلى الشام للقيام بحملة صليبيه على دلتا مصر فكانت الحملة الصليبية الخامسة على مصر والتي استولى فيها الصليبيون على دمياط.

كان نزول الصليبيين على دمياط مفاجأة مذهلة للعادل فمات من ساعته في أغسطس سنة 1218 م، وتولى إبنه الكامل محمد مهمة طرد الصليبيين من مصر.

أحوال الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي

توفي صلاح الدين الأيوبي في أوائل مارس سنة 1193م في دمشق بعد مرض قصير تاركاً خلفه مملكة واسعة الأرجاء وفراغاً ضخماً لم يستطيع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته أو أبناء إخوته أن يملأه. وكانت وفاة صلاح الدين الأيوبي نهاية مرحلة تاريخية في الصراع ضد الفرنج الصليبيين وبداية مرحلة تاريخية جديدة، أدت في الحال إلى تغير في موازين القوى السياسية والعسكريه فحين توارت هذه الشخصية الفذة من على مسرح التاريخ حدث فراغ سياسي كبير أضر بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانبي الصليبي، إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي يحفظ الدولة من التفكك. ولم تكن هناك مؤسسات تضمن إستمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسّم دولته كما يُقسّم الإرث بين أبنائه وإخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً في تلك العصور. وكان طبيعياً أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين[1].

ولو أنّ صلاح الدين قبل وفاته تدارك كل ما حدث، ونصب عليهم واحداً يصير سلطاناً للدولة خلفاً له والباقون ملوكاً تابعين له يدينون له بالطاعة حفاظاً على الدولة من الإنقسام والتفكك أو على الأقل لو أن صلاح الدين تنازل عن عاطفته الأبوية ونظر إلى الصالح العام للأمة الإسلامية فقط لأعطى الحكم لأظهر رجل أيوبي بعده وهو أخوه الملك العادل فجعله نائباً عنه في حياته وخلفاً له بعد مماته وجعل أولاده أمراء تبعاً له، وبذلك يكون قد أبقى على البلاد ووحدتها[2].

وإذا كان صلاح الدين قد إعتمد على إخوته وأبناء عمومته في المرحلة الأولى من حياته وكانوا ساعده الأيمن في الحرب والقتال وفي حكم معظم أقاليم السلطنة الشاسعة الأطراف، فإنه وبعد أن إستتب له الامر قسّم أملاكه بين أبناءه وعهد لبعض إخوته وأبناء عمومته بالوصاية عليهم، فعهد إلى إبنه الأفضل نور الدين على بحكم دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد* وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم.

---

[1] إستيفن رنسمان: مصدر سابق، ص8.

[2] العماد الاصفهاني: مصدر سابق، ص 629.

* بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية واسعة/ شهاب الدين ابن عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2008، ج9، ص 184.

بينما كان لإبنه الملك العزيز عثمان حكم مصر، أما إبنه الثالث الملك الظاهر غازي فقد تولى حلب وجميع أعمالها وشمال الشام، أما أخوه سيف الإسلام طغتكين فقد استغل باليمن وأعمالها بينما أخذ الملك العادل سيف الدين أبو بكر الكرك والأردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر وكلها إقطاعات ثانوية غير ذات وزن لا تتناسب مع أهمية العادل ومهارته العسكرية والدبلوماسية. وتولى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد سلالة أسد الدين شيركوه وفي حماة تولى الحكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[1].

وإلى جانب هؤلاء جميعاً من أفراد الأسرة الأيوبية فقد احتفظ عز الدين مسعود بالموصل وأخيه عماد الدين زنكي بسنجار* وقطب الدين سقمان بكيفا وآمد عماد الدين أبو بكر إبن قرأ أرسلان بخرتبرت[2].

هكذا تفككت عرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بالمنطقة العربية (عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي) وقد سبق وأن ذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي هو الذي قسم الدولة على هذا النحو كما تقسم التركات الخاصة وكان ذلك متماشياً مع التقاليد السياسية في ذلك الوقت من ناحية، و لكنه كان سبباً في إنهيار الوحدة السياسية للمنطقة العربية وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى. وقد كان نتاج ذلك التقسيم مريراً تمثل في عدد من المشاحنات والمنازعات والحروب الداخلية[3].

وسرعان ما انغمس الأيوبيين في صراعاتهم الداخلية كما واجهتهم مشكلات أطماع بقايا البيت الزنكي من حكام الجزيرة وأعالى العراق وكان لحدوث النزاع بين أبناء صلاح الدين الأيوبي أثر كبير في تشكيل أحداث الفترة المقبلة. ولم تلبث الإمور أن تعقدت بين الإخوة الذين لم يستطيعوا أن يتعلموا ويفهموا من والدهم أثناء حياته معنى التسامح والإيثار والبعد عن الأنانية والأطماع الشخصية وهو الذي كان منارة مشعة لكل هذه الصفات[4].

---

[1] محمود الحويري: العادل الايوبي، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، دار حراء القاهرة ، 1980، ص49.

* مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام/ ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج5، ص78.

[2] ابو شامة: مصدر سابق، ص378-379.

[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص80.

[4] احمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1969، ص88.

وفي سنة 1194م كانت الأزمة قد تفاقمت بين إثنين من أبناء صلاح الدين وورثته هما السلطان الملك العزيز الذي تولى حكم مصر والسلطان الأفضل نور الدين الذي تولى حكم جنوب الشام واتخذ دمشق عاصمة له. ذلك أن صلاح الدين إستحلف العساكر جميعهم لتكون السلطة لإبنه الأفضل في جميع أنحاء الدولة الأيوبية، ولكن سوء سيرة الأفضل أدت إلى فرار كثير من أمراءه ورجاله إلى مصر حيث أخذوا في استعداء الملك العزيز عثمان على أخيه الأفضل وحسّنوا له الإستبداد بالحكم، والقيام بالسلطنه بدلاً من الأفضل واتفق أمراء الدولة الأيوبية في مصر أن يكون الأمر للعزيز عثمان إذ هو المحيي لسنة والده في الكرم والشجاعه وأشاروا على الملك العزيز عثمان بالتوجه إلى الشام لتجتمع له المملكتان مصر والشام، فخرج العزيز من مصر بجيوشه لكي ينتزع من أخيه حكم بلاد الشام في صيف سنة 1194م، وحاصرت قواته دمشق. ولم يكن لدى الأفضل من القوة ما يجعله يصمد أمام جيوش أخيه العزيز فاستنجد بعمه الملك العادل والملك الظاهر صاحب حلب والملك المنصور صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك، فوردت رسلهم كلهم إليه بأنهم على عزم نصرته ومساعدته وأنهم لا يتأخرون عن الوصول اليه[1].

أحس العادل بأن الظروف مهدت له الطريق في التدخل في شئون أملاك أولاد أخيه صلاح الدين الأيوبي وطمع في الإستيلاء على تلك الممالك خاصة وأ.ن الملك العادل لم يكن راضياً عن وضعه لا سيما وأن نصيبه من تركة صلاح الدين لا يتناسب وأهميته بالنسبة للدور الذي قام به في حياة صلاح الدين ولكنه كان حريصاً على وحدة البيت الأيوبي ، كما كان كثير ممن نشأوا في ظل دولة صلاح الدين يتخوفون أن تصير حال الدولة بعده إلى الشقاق والنزاع، وممن أوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل بهاء الدين نب شداد وقد كتب إلى الملك الظاهر إثر وفاة السلطان يقول له: إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم[2].

ولم تنفع وصية القاضي الفاضل، وسرعان ما نشبت الحروب بين الممالك والإمارات ولم تنفع الملك الأفضل تلك المبايعة التي دعا إليها القادة والأمراء في دمشق عندما

---

[1] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص120-122.
[2] ابن واصل: مصدر سابق، ص 378-379.

كان أبوه يعاني سكرات الموت معتذراً بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون وما يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك[1].

وقد خالف الأفضل سيرة أبيه فأقصى العقلاء من مستشاريه وأمراء دولته ووضع كل ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين بن الاثير[2*] لذلك نقم عليه وزراءه وفروا إلى بلاط العزيز بمصر فاستقل العزيز تلك الفرصة وسار بجنده إلى دمشق وقد كان قد إلتقى بالملك العادل في صحراء المزة غربي دمشق، وهنا بدأ العادل يلعب دور الوساطة السياسية ونصحه بالعودة من حيث أتي قائلاً له: (لا تخرب البيت وتدخل الآفة والعدو وراءنا من كل جانب أرجع إلى مصر وأحفظ عهد أبيك) فأجابه إلى ذلك وعاد العزيز أدراجه إلى مصر وخرج لوداعه الملك الأفضل وملوك البيت الأيوبي بعد أن أيقن بأن أمراء الشام قد اجتمعوا لمقاومته وبعد أن تم الإتفاق على أن يعفو العزيز عثمان عن أخيه الأفضل وأن يرفع الحصار عن دمشق، كما وتمّ تعديل في ممتلكات الإخوة الثلاثة بحيث يأخذ العزيز فلسطين بالإضافة إلى مصر ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية بالإضافة إلى حلب ويحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور[3].

بعدها توجه العادل إلى الجزيرة وديار بكر لمواجهة صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي الذي طمع في إقطاعات العادل بالجزيرة وديار بكر، وسانده أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار ونصبين، وبعد عدة تطورات سياسية تمكن العادل من تأمين ممتلكاته في تلك الانحاء[4].

ولم يكن معنى ذلك إستقرار الإمور بين أبناء صلاح الدين خاصة الأفضل والعزيز وذلك نتيجة لرغبة مستشارو السوء في الإيقاع بين الأخوين من جديد بعدما أصلح عمهما العادل الإمور هذا بالإضافة إلى طموحات العزيز السياسية التي ألهبت الموقف من جديد إذ أنه كان يريد أن يرث سلطة أبيه ومكانته ولكن مواهبه وقدراته السياسية كانت أدنى من ذلك بكثير، فحشد العزيز جيشاً خرج به إلى دمشق في 1194م – 1995م لإقامة الخطبة فيها بإسمه وضرب السكة باسمه أيضاً واستنجد الأفضل من جديد للمرة الثانية بعمه العادل وهو بالشرق كما استنجد ببقية إخوته وفي هذه المرة كان

---

[1] ابن شداد: مصدر سابق، ص 248-249.

[*] هو أبو الفتح ضياء الدين نصرالدين بن محمد بن الأثير رئيس الكُتّاب وله عدة مؤلفات وكان وزيراً للأفضل بن صلاح الدين الأيوبي وهو أخ إبن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ/ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص81.

[3] ابراهيم الإبياري: البطل الخالد صلاح الدين والدولة الايوبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ص80.

[4] الحويري: مرجع سابق، ص 49- 50.

العادل يعمل على إثارة العداوة بين الأخوين وأخذ العادل ينحاز تارة في جانب الأفضل ضد العزيز وتارة أخرى في جانب العزيز ضد الأفضل. وفي هذه المرة حرّض العادل أمراء العزيز على الإنفضاض من حوله فوجد العزيز نفسه في الطريق إلى دمشق وقد إنفض عنه إمراءه مما جعله يضطر إلى العودة إلى مصر[1].

وهكذا نجح العادل في الإيقاع بين الفريقين بل أنه كتب سراً إلى الملك العزيز يحذره من الامراء الاسدية وفي الوقت نفسه كتب الى أمراء الأسدية يخوفّهم من الملك العزيز. ثم انسحبت فرقة كاملة من الجيش للملك العزيز وانضمت إلى الملك العادل وكانت هذه الفرقة تشكل معظم الجيش المصري. وقد كان الملك العادل يواصل السعي نحو عرش الأيوبيين الكبير في مصر على أساس من سياسة النفس الطويل فاتفق مع الملك الأفضل أن يكون له ثلث مصر إذا نجحوا في الإستيلاء عليها من الملك العزيز[2].

وتكاد الحرب تقع بين الأبناء وما يكاد الأبناء يشتغلون بأنفسهم ولا يشتغلون بعدوهم. ونتيجة لذلك الإتفاق جمع العادل والأفضل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ثم شرعا يزحفان على العزيز في مصر، حتى وصلا بلبيس وحاصراها وضيّق العادل عليها الحصار حتى كادت تؤخذ، وضاق العزيز بالقاهرة وقلت الأموال عنده وكان محباً إلى الرعية لما فيه من حسن السيرة وكثرة الرفق والكرم. فلما نزل العادل بلبيس إحتاج إلى إستخدام الرجال فلم يجد عنده مالاً، فبذل له الأغنياء جملة أموال فلم يقبلها[3].

وحينما أدرك الملك العزيز عبث الإستمرار في المقاومة أرسل إلى عمه يطلب منه أن يسمح له بالخروج منفياً إلى المغرب بحريمه وأولاده، ولم يشأ الملك العادل أن يعطي الثمرة الناضجة لإبن أخيه الأفضل الذي كان قد اتفق معه على أن يأخذ ثلثها فقط كما خاف منه ألا يسلمه دمشق وآثر أن يواصل لعبه الصبر حتى يحصل على الثمرة كلها لنفسه. فأرسل سراً إلى العزيز يطلب منه الثبات وتعهد له بأن يجعل الأفضل يسرع بالإنسحاب من أمام بلبيس. و تمّ الإتفاق على أن يبقى العزيز في ملكه بمصر ومعه

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص 124-125.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص83.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص126.

عمه العادل وأن يعود ضباط الجيش والأمراء إلى خدمة العزيز وتعود إليهم إقطاعاتهم ويتم الصلح بين الملك العزيز والملك الأفضل[1].

وهكذا انتقل العادل من دمشق إلى القاهرة ولم يكن إنتقالاً فحسب وإنما كان تغييراً في أدوار المسرح السياسي، كما كان تحولاً في المواقع السياسية جعل الملك العادل الأيوبي أقرب كثيراً إلى هدفه الكبير. لقد بقي العادل في القاهرة بجوار إبن أخيه الملك العزيز ولكنه لم يكن ضيفاً عليه وإنما صار صاحب سلطة سياسية وتنفيذية كبرى، فأخذ في إصلاح الإمور في مصر وأظهر من محبة العزيز شيئاً زائداً وصار إليه الأمر والنهي والحكم والتصرف في سائر إمور الدولة جليلها وحقيرها. وضبط العادل إمور مملكة مصر وغيّر الإقطاعات وثمّر الأموال وقرّب إلى العزيز الأمير عزالدين أسامه أمير بيروت المسلم فصار صاحب سره وخاصته[2].

وقد حدث هذا التغييرالسياسي في مصر نتيجة لعدم كفاءة أولاد صلاح الدين الأيوبي وجهلهم وطيشهم من ناحية، ونتيجة لقدرات العادل ومواهبه السياسية وصبره على مواصلة تنفيذ خطته من ناحية ثانية. فقد أمسك العادل بزمام نقطة المركز وبؤرة التوازن السياسي حينما أمسك بزمام السلطة السياسية في القاهرة وأخذ يوجه الإمور لصالحه ولصالح مشروعه الكبير في خلافة صلاح الدين الأيوبي. كذلك كانت الإمور تجري لصالحه على جبهة دمشق، فبعد أن عاد الأفضل إلى دمشق تحول مرة أخرى إلى الزهد وأقبل على العبادة وترك جميع شئون الحكم في يد وزيره ضياء الدين إبن الأثير، فاختلت الإمور غاية الإختلال وضج الناس من سوء إدارته وهنا وجد العادل أن الأوضاع باتت مهيأة لعزل الأفضل بعد أن تواترت الأخبار بمدى تدهور الأحوال في دمشق وخرج الملك العادل والملك العزيز من القاهرة في يونيو سنة 1196م قاصدين دمشق فما صدهم عنها صاد وتمّ الإستيلاء عليها وعُزل الأفضل عن ملكه وتولى العادل محمد حكم دمشق بدلاً عنه محققاً بذلك خطوة هامة في سبيل تنفيذ مشروعه لتولي السلطنة الكبرى في القاهرة، وأقام العادل في دمشق إقطاعاً له، و ليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط[3].

---

[1] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص124.
[2] المقريزي: مصدرسابق، ص129.
[3] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص98.

واستمر الأمر على ذلك وأظهر العادل براعة كبيرة في حكم دمشق ومهاجمة الصليبيين إلى أن توفى العزيز عثمان في عام1198م ولم يتعد عمره ثمانية وعشرين عاماً، وتولى حكم مصر من بعده أخيه الملك المنصور ناصر الدين محمد وكان عمره تسع سنين وبضعه أشهر. فرأى سائر الأمراء بالديار المصرية إستدعاء العادل لتولي أتابكية المنصور ولكن بعض الأمراء الذين خشوا من قوة وبأس العادل فضلوا إستدعاء الأفضل من حوران لكي يكون هو الأتابك (أي الوصي) للسلطان الطفل وجاء الأفضل إلى القاهرة متخفياً خوفاً من عمه العادل، ثم استقر بالقاهرة وكتب إلى العادل يخبره وصوله إلى مصر حفظاً لدولة إبن أخيه وأنه لا يخرج عما يأمره به، وجاء رد العادل لينبئ عن حقيقة أهدافه، فقد كتب إلى الأفضل بأنه إذا كان الملك العزيز قد مات دون أن يترك وصية فيجب على الأعيان أن يشهدوا بذلك ويكتبوا إليه لكي يقرر ما ينبغي عمله، أما إذا كانت وصية فإنه يجب الإلتزام بمضمونها. وفي كل الأحوال لا ينبغي للأفضل أن يتدخل في إمور مصر وشئونها. وقد كان رد العادل حاسماً يكشف عن حقيقة أهدافه وأنه لم يكن يسمح بأن تضيع منه مصر تحت أي ظروف، فقد كانت هي العمود الفقري في مشروعه لوراثة صلاح الدين ولكن إبن أخيه الأفضل لم يلتفت إلى رسالته وانفرد بأمر مصر وسيطر سيطرة كاملة على إمور البلاد في يناير سنة 1199م، ولم يبق للمنصور غير مجرد الإسم فقط وبدأ يوطّد لنفسه بالقضاء على من بقى بمصر من الأمراء الصلاحية ففر منهم جماعة وقبض على البعض الآخر[1].

وفي تلك الأثناء كان العادل غائباً عن دمشق في حصاره لماردين فأرسل الظاهر غازي صاحب حلب إلى أخيه الأفضل يحرضّه على انتهاز الفرصة والإستيلاء على دمشق. ولم ينس الأفضل تآمر عمه ضده فخشى من أطماعه في الإستيلاء على مصر من يده. لذلك خرج بجنوده من القاهرة صوب دمشق ولحق به الظاهر غازي من حلب. وحاصرا دمشق التي كان العادل قد وصل اليها مسرعاً بعد أن ترك إبنه الكامل مع جيشه في حصار ماردين*. وشددا حصارهما لها واستمر الحصار مدة ستة أشهر وساءت الأحوال في دمشق كثيراً. ولجأ العادل محمد إلى سلاحه المفضل أي الدس والوقيعة بين قادة جيش التحالف ثم استدعى إبنه الكامل بجيشه من الشرق وتغيّر ميزان

---

[1] R. C. SMAIL : Crusading warfare , 1097 – 1193, cambirge univrsity press ,1950 ,pp 84

* تقع ماردين في ديار بكر وقد كتب صاحبها حسام الدين الأرتقي إلى العادل يستدعيه ليسلمه ماردين ويأخذ منه عوضاً عنها فلما وصله العادل لم يفي حسام الدين بوعده مما تطلب من العادل محاصرة ماردين عندئذ/ عاشور: الحركة الصليبية، ص 924.

القوى العسكرية لصالح العادل وانتهى الأمر برفع الحصار عن دمشق في ديسمبر 1199م. وعاد الأفضل إلى القاهرة وطارده عمه بجيوشه وأنزل به هزيمة ساحقة بالقرب من بلبيس ثم أرسل إليه رسالة حاسمة واضحة في قوتها (.. أنا لا أحب أن أخرق ناموس القاهرة لأنها أعظم معاقل الإسلام ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف. وأذهب أنت إلى صرخد وأنت آمن على نفسك..) وخرج الأفضل من القاهرة بعد أن دخلها العادل في سنة1200م، وبذلك بات الطريق ممهداً أمام العادل للإنفراد بالحكم. فقد صار الآمر الناهي بوصفه الوصي على الملك المنصور[1].

وعلى هذا النحو تمّ للعادل الإستيلاء على معظم أملاك البيت الأيوبي، واستقرت له القواعد وأصبح في يده دمشق ومصر وبيت المقدس فضلاً عن الجزيرة وديار بكر. ولمّا تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده فأعطى الملك الكامل الديار المصرية والملك المعظم البلاد الشامية والملك الأشرف البلاد الشرقية، والأوحد ميافارقين وتلك النواحي[2].

واستطاع العادل أن يحول مجرى الإمور السياسية لتحقيق زعامته على البيت الأيوبي ويحقق نوعاً من الوحدة، ولكنه لم يكن أبداً يطاول قامة صلاح الدين الأيوبي السياسية كما أن الوحدة التي بناها كانت نوعاً من البناء السياسي الهش الذي لا يمكن مقارنته بالوحدة التي أسهم في بنائها ثلاثة أجيال من الزعماء كان صلاح الدين آخرهم[3].

ثم قام بخطوته الأخيرة حين أعلن أمام جماعة من الأمراء إنفراده بحكم البلاد وخلع السلطان الطفل مبرراً ذلك بقوله: (أنه قبيح بي أن أكون أتابكاً لصبي مع الشيخوخة والتقدم وليس المُلك بالإرث وإنما هو لمن غلب وأنه كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر صلاح الدين غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه فلما كان من الإختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخي فسست الأمر إلى آخره فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه ونهوضي بأعبائه[4].

وكان من الممكن أن يُقبل هذا القول من الملك العادل لو أنه كان يعنيه حقاً أو لو أنه إلتزمه مع نفسه وأولاده، ولكن الواضح أنه ساق هذا القول لتبرير فعلته وحسب، بدليل أنه تمسك بمبدأ الوراثة بعد قليل فقسم الملك بين أولاده الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص140.
[2] ابن خلكان: و فيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، لبنان، ص76.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص80.
[4] سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1961، ص 326- 327.

قبل وفاته وظل الملك في مصر على الأقل وراثياً في عقبه إلى أن إنتهت الدولة الأيوبية. كذلك يكشف النص عن حقيقة السياسات الأيوبية منذ وفاة صلاح الدين حتى تولى العادل عرش السلطنة في القاهرة فالتنازع والتخاصم كان سمة هذه الفترة بحيث حارب الأيوبيون بعضهم بعضا، وسعوا إلى مهادنة الصليبيين لكي يتفرغوا لقتال إخوتهم وبني عمومتهم. وكانت النتيجة فراغاً سياسياً وعسكرياً أفاد منه الصليبيون في تجديد قواهم والإستعداد لعدوان جديد على المنطقة. ومن ناحية أخرى أرسى العادل مبدأً سياسياً خطيراً كانت له آثاره بعيدة المدى في التاريخ السياسي فيما بعد، وهو مبدأ " الحكم لمن غلب" فقد خسر الأيوبيون ملكهم أمام المماليك الذين كانوا رقيقاً لهم بمقتضى هذا المبدأ[1].

كذلك فإن العادل سلك مسلكاً سياسياً طبيعياً في تناوله للإمور ولم يكن إنتهازياً فقد تعامل العادل مع حقائق الموقف السياسي بصفته الرجل الأكثر كفاءة وخبرة، ولم يكن ممكناً أو مقبولاً أن يترك الأحوال تتردى أمام ناظريه تحت حكم أشخاص متقلبين ما بين العبث واللهو من ناحية والزهد والإنقطاع للعبادة من ناحية أخرى مثل إبن أخيه الأفضل. وعلى أية حال فإن الأحكام الأخلاقية لا يمكن أن تكون معياراً لتقييم حركة التاريخ التي تحكمها إعتبارات الصراع[2].

هكذا تولى العادل سيف الدين محمد أبو بكر بن أيوب عرش السلطنة سنة 596-1200م وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب كان وافر العقل حازماً في الإمور. وخطب له بديار مصر وأرض الشام وضربت السكة بإسمه وجعل إبنه الكامل محمد نائبه في مصر وولي عهده. وتم توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ولكن الإمور لم تهدأ تماماً على الجبهة الأيوبية كما كانت سحب الخطر تتجمع على الجبهة الصليبية[3].

ومما تقدم يتضح أن المنازعات الداخلية بين الأيوبيين تحتل صدر إهتماماتهم، ولكن تطور المشروعات الصليبية في الغرب الأوربي أجبر الأيوبيين على توجيه قدر من إهتمامهم لمنازلة الصليبيين وقتالهم. وقد كان خلفاء صلاح الدين قد إنتهجوا سياسة مهادنة إزاء الصليبيين تقوم على رد الفعل أكثر من مما تقوم على المبادأة أو المبادرة،

---

[1] محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة على مصر، تقديم جوزيف نسيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978، ص92.
[2] قاسم عبده قاسم: مصدر سابق، ص89.
[3] بن خلكان: مصدر سابق، ج5، ص67.

فقد كان لإنشغال الأيوبيين بمنازعاتهم من جهة وإهتمامهم بالهدنة مع الصليبيين وتجديدها من جهة أخرى أثر إيجابي على الصليبيين الذين وجدوا الفرصة لإلتقاط أنفاسهم وحشد المساعدات من الغرب الأوربي لمساعدتهم.

هكذا يتضح أن بين بني أيوب لا ضابط لخلافهم ولا ضابط لصلحهم سرعان ما يختلفون وسرعان ما يصطلحون وسرعان ما ينضم هذا إلى ذاك وسرعان ما يخرج هذا على ذاك، الأمر الذي جعل الصليبيون ينالون منهم ويقومون بإضعاف سلطانهم في كل من مصر والشام.

العادل والصليبيون

لم تلبث أخبار وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته والنزاع بين أبنائه أن وصلت الغرب الأوربي حتى فكر المتحمسون على القيام بحملة صليبية جديدة تسترد بيت المقدس من المسلمين، لا سيما وأن صلح الرملة الذي عقده ريتشارد قلب الأسد مع صلاح الدين كان محدداً بثلاثة سنوات وثلاثة أشهر تنتهي في ديسمبر سنة 1195م[1].

وكان الصليبيون في الشام يتابعون ذلك النزاع العائلي في المملكة الأيوبية دون أن يتدخلوا فيه، وظل السلام مستتباً بين الفريقين بإستثناء بعض المعارك المحلية أو المناوشات الجانبية، والواقع أن هنري دي شامبني ملك الصليبيين بالشام حرص في أول الأمر على ألا يبدأ بالعدوان على المسلمين، ولكن الفوضى التي عمت الدولة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين والمنازعات والحروب بين أبنائه وورثته جعلت من المتعذر الإحتفاظ بحالة من الإستقرار تضمن دوام السلم بين المسلمين والصليبيين. من ذلك أن عزالدين أسامة أمير بيروت دأب على تسليح السفن لقطع الطريق على الصليبيين والإعتداء على مراكبهم ونهبها، ولكن الصليبيين تحملوا هذه الإعتداءات من أسامة وأمثاله من حكام المسلمين في صبر بالغ. وظل الأمر على ذلك حتى مجئ الصليبيين إلى بلاد الشام سنة 1197 فقطعوا خيط السلام بهجومهم على الأراضي الإسلامية دون أن يستأذنوا في ذلك هنري دي شامبني ملك المملكة الصليبية بالشام والذي كان حريصا على تجديد الصلح بينه وبين المسلمين عقب وفاة صلاح الدين[2].

ولم يستطيع الملك العادل السكوت على أولئك الصليبيون الذين انتشروا في الساحل وكثروا فيه، لا سيما بعد أن قتلوا بعض المسلمين في أطراف القدس وأسروا وغنموا شيئاً كثيراً ، لذلك أسرع العادل إلى طلب النجدة من بقية أمراء بني أيوب من الجزيرة شمالاً حتي مصر جنوباً فعبأوا جيوشهم وتجمعت هذه الجيوش في عين جالوت ولم تلبث أن أحاطت الجيوش الإسلامية بالصليبيين قرب عكا، وهنا أسرع هنري إلى حشد القوى الصليبية ولكن الهزيمة حلت بالصليبيين في الموقعة التي دارت بين الجانبين عند تل العجول قرب غزة فقتل المسلمون منهم جماعة وأسروا جماعة ورجعوا بغنائم كثيرة[3].

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص917.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص129.
[3] ابن واصل: مصدر سابق، ص74.

لذا أسرع هنري دي شاميني بالكتابة إلى الإمبراطور هنري السادس إمبراطور ألمانيا في الغرب – لأنه كان من أشد المتحمسين من بين ملوك الغرب الأوربي لإسترداد بيت المقدس – يستحثه على القدوم إلى الشام لنجدة الصليبيين، ولكن الملك العادل كان أسرع في الحركة فزحف على يافا ودخلها بعد أن هزم الصليبيين. وكانت يافا في ذلك الوقت تابعة تبعية إسمية للملك عموري لوزجنان ملك قبرص، ومع ذلك فقد بادر هنري دي شاميني إلى محاولة نجدة يافا فعرض على عموري إعطائه يافا ليحكمها حكماً مباشراً مقابل قيامه بالدفاع عنها ضد المسلمين. وقد وافق عموري على ذلك العرض ولكن سرعان ما وردت إليه الأخبار بضعف إستعدادات ملك قبرص في يافا وأنه لا يبالي بوقوع المدينة في قبضة المسلمين. لذلك أسرع هنري دي شاميني إلى إعداد العدة للدفاع عن يافا بنفسه، ولكنه توفي فجأة في سبتمبر 1197م في الوقت الذي إستولت فيه الجيوش الأيوبية على يافا. وبذلك جاءت خسارة الصليبيين مزدوجة[1].

وكان عموري قد جاء من قبرص لنجدة يافا ولكنه وصل بعد أن سقطت المدينة فعلاً في يد الملك العادل، ففكر في الإستعاضة عن يافا بمدينة بيروت وقد تمكن الصليبيون من الإستيلاء على بيروت فعلاً في اكتوبر سنة 1197م صفواً عفواً بغير قتال، فكانت غنيمة باردة بعد أن هرب منها صاحبها عزالدين أسامة وجميع من معه[2].

وكان الصليبيون قد فكروا عقب الإستيلاء على بيروت في الزحف بزعامة الملك عموري للإستيلاء على بيت المقدس، إلا أنهم لم يتجهوا نحوه مباشرة وإنما توقفوا لحصار حصن تبنين* وكانت بيد حسام الدين بشارة فنازلوها بفارسهم وراجلهم وأحدقوا بها وضايقوها وقد بدأ حصار الحصن في سنة 1197م وهاجمه الصليبيون هجوماً عنيفاً ولكن المسلمين صمدوا وقاتلوا قتال من يحمي نفسه[3].

وفي هذا الوقت طلب الملك العادل معونة إبن أخيه العزيز عثمان فسار إليه بمن بقى عنده من عساكر مصر في أوائل فبراير سنة 1198م. كذلك أتى لنجدة العادل بقية أمراء البيت الأيوبي مما أخاف الصليبيين فرحلوا عن تبنين على أعقابهم إلى صور خائبين. أما الملك العزيز والملك العادل فقد سارا في إثر الصليبيين يلتقطون من ظفروا

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص920-921.

[2] ابن الاثير: مصدر سابق، ص127.

* هو حصن بني بعد الخمسمائة بين صور وبانياس بجبل عاملة المشهور في جبال الشام/ القلقشندي: صبح الاعشى، ج 4، ص15.

[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص923.

به منهم. وبذلك تبددت الحملة الصليبية في فبراير 1198م دون أن تحقق أثراً يذكر في بلاد الشام[1].

وقد ألقت تلك النهاية الصامتة للحملة الصليبية على كاهل عموري الثاني مهمة حرب المسلمين ولم يكن عموري مستعداً لخوض حرب طويلة المدى. كذلك العادل كان يريد أن يتفرغ لشئون دولة بني أيوب ، كما عاد الملك العزيز فعلاً إلى مصر حيث استدعت ظروفه بقاءه فيها[2].

وهكذا ساعدت الأوضاع على عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين في أول يوليو سنة 1198م على أساس القواعد التي اتبعت في صلح الرملة المعقود بين صلاح الدين وريتشارد مع إحتفاظ كل من المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة فاحتفظ الصليبيون بجبيل واحتفظ العادل بيافا في حين قسمت صيدا مناصفة بين الطرفين واتفق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات. وبذلك أمن الناس شرهم ورجع الملك العادل إلى دمشق وتفرقت الجند جميعها إلى بلادها[3].

ولم يكد يتم عقد الصلح بين العادل والصليبيين حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات إنتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل وقد تطلب منه توحيد الدولة إعادة تنظيمها فاستعان في ذلك بأبنائه، فأناب إبنه الكامل محمد في حكم مصر وجعل المعظّم عيسى في دمشق وأعطى الأشرف موسى البلاد الشرقية وهي الرها وما معها من حران وغيرها، أما العادل نفسه فكان يتردد بينهم ويتنقل إليهم من مملكة إلى أخرى للإشراف على تلك الأنحاء[4].

وهكذا تمت إعادة الجبهة الإسلامية المتحدة إلى ما كانت عليه تحت زعامة رجل من أقوى رجال عصره وهو السلطان العادل، حتى أصبحت إمبراطوريته تعادل في اتساع رقعتها إمبراطورية أخيه صلاح الدين، ولكن إعادة توحيد الدولة الأيوبية جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتوجهوا نحو حصار بيت المقدس فيعرّضون أنفسهم للوقوع بين فكي كماشة أي بين قوات العادل التي تخرج من مصر وتلك التي تنفذ من دمشق، لذلك كان الفكر الإستراتيجي في أوربا الغربية قد تغير منذ الحملة الصليبية الثالثة فلم

---

[1] ابن الاثير: مصدر سابق، ج12، ص129.
[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص923.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص 78.
[4] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص227.

يعد النزول على سواحل الشام أو ضفاف نهر الأردن هدفاً للمشروعات الصليبية وإنما بات النزول على دلتا النيل والإستيلاء على مصر بكل موادرها البشرية والمادية والروحية قضية منطقية وضرورة عسكرية وحربية لضمان الإستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراضي مملكة بيت المقدس، وقرروا أن يبدأوا بمهاجمة شواطئ مصر الشمالية لحماية أولئك التجار الصليبيون في موانئ دلتا النيل وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين ثم بعد ذلك يستطيعون الإستيلاء على بيت المقدس إما عن طريق المساومة أو عن طريق القوة. وهكذا استقر الرأي أن تكون مصر مقصد الحملة الصليبية الرابعة بإعتبارها مركز القوة الأيوبية بعد أن إعتلى عرشها السلطان العادل. وأعلن أنوسنت الثالث* أن هدف الحملة هو تصحيح الأوضاع الناجمة عن إنتصارات صلاح الدين الأيوبي[1].

وبعد أن حدد الصليبيون وجهة حملتهم بقي عليهم أن يعدّوا السفن اللازمة لنقلهم إلى الشواطئ المصرية فاتصلوا بالبندقية وعقدوا معها إتفاقية سنة 1201م لذلك الغرض وأخذ الصليبيون يحتشدون في البندقية فعلاً في صيف 1202م إنتظاراً لنقلهم إلى شواطئ مصر. ولكن البنادقة لم يكونوا مستعدين لمعاداة الملك العادل وحمل الصليبيين إلى شواطئ مصر نظراً لما صار بينهم من مصالح إقتصادية واسعة في مصر في ذلك الوقت، ففي الوقت الذي كانوا يساومون الصليبيين على الأجر اللازم لنقلهم إلى شواطئ مصر إذ بهم يدخلون في مباحثات إقتصادية مع السلطان العادل وأرسلوا بعض المبعوثين فعلاً إلى مصر سنة 1202م فعقدوا معاهدة تجارية مربحة مع السلطان العادل وتعهدوا له بعدم مساعدة أي مشروع صليبي ضد مصر[2].

وهكذا إنحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسي ورسالتها الدينية، فاتجهت نحو القسطنطينية ولم يكن هذا مجرد تغيير جغرافي وإنما كان تعبيراً عن الإفلاس الأيدولوجي لفكرة الصليبية نفسها. وقد عبّر قاسم عبده قاسم عن رأيه في أسباب إنحراف الحملة الصليبية الرابعة:(فالرأي عندي أن العوامل الإقتصادية والدوافع المادية كانت بإستمرار من الحوافز التي حرّكت الحركة الصليبية منذ بدايتها سنة 1095م

---

* تولى منصب البابوية سنة 1198م وكان قد تلقى تعليماً جيداً في اللاهوت والقانون الكنسي وكذلك كان يعتقد أن البابوية يجب أن تسمو فوق القوى العلمانية/ عاشور: الحركة الصليبية، مرجع سابق، ص 929.

[1] محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، 196، ص 39.

[2] Victor duruy: The history of the middle eges ,New York , Henry Holtand company , p p280

وطوال تاريخها كما أن الإستيلاء على طرق التجارة وموانيها كان من أهم أهداف الصليبيين والمدن التجارية الإيطالية التي ساعدتهم بما يشكل تجسيداً عملياً وواقعياً لهذه العوامل الإقتصادية والدوافع المادية. ومن ناحية أخرى فإن العداء المذهبي المستمر بين كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية والبابوية الكاثولوكية بمزاعمها العالمية برئاسة العالم المسيحي كان من بين الأسباب الهامة لإتجاه الحملة إلى القسطنطينية بدلاً من القاهرة) واستولى الصليبيون على القسطنطينية في سنة 1204م وأقاموا بها إمبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية ظلت قائمة نحو ستين عاماً[1].

وكان لذلك تأثيره على الأوضاع السياسية والعسكرية في الدولة الأيوبية بطبيعة الحال، فقد تمخض مشروع الحملة الصليبية على مصر عن هجوم هزيل على الشواطئ المصرية بين رشيد وفوه. إذ أن بعض الذين لم يعجبهم إنحراف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها واصلوا إبحارهم حتى شواطئ بلاد الشام، وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم عابث إستمر خمسة أيام بإسطولهم والعسكر تجاهه ليس إليه وصول لعدم وجود الأسطول العادلي[2].

وهكذا أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام وخراب ديارهم وإقفار بلادهم من المقاتلين وهي الحملة التي كان مفروضاً أن تنجد الصليبيين بالشام وتدعم مركزهم وتعينهم على مقاومة الضغط الإسلامي الواقع عليهم. وحقيقةً لقد كانت أحداث هذه الحملة مزجاً بين المأساة والملهاة؛ فقد نجحت هذه الحملة ولكن نجاحها كان على حساب بيزنطة لا ضد العالم الإسلامي فقد كان الهدف المباشر لهذه الحملة هو مصر وفعلاً توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية حتى تنقلهم سفنها إلى الموانئ المصرية، ولكنهم بعد سنة من التوجه كانوا يفرضون حصارهم على القسطنيطينية العاصمة المسيحية بدلاً من القاهرة العاصمة الإسلامية[3].

والحقيقة أن مصر كانت تبدو الهدف الوحيد المعقول الذي ينبغي أن تتوجه الحملة نحوه لأن المساعدة الفعّالة الوحيدة لفلسطين سوف تأتي من مصر التي صارت مركز القوة الأيوبية بعد أن إعتلى عرشها السلطان العادل.

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص90.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص163.
[3] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص89.

وفي تلك الأثناء كان الملك عموري الثاني لوزجنان حريصاً منذ أن عقد الصلح مع العادل سنة 1198م على عدم إستفزاز المسلمين وعلى إحترام الصلح بينهم حتى تأتي الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر أو إلي الشام حتى يمكن الصليبيين أن يخوضوا معركتهم ضد المسلمين وهم مطمئنون، لذلك نصح الصليبيون بالتريث والصبر حتى تكتمل القوة المناسبة التي يمكن بها محاربة الدولة الأيوبية[1].

ولكن الصليبيين المتحمسين لم يستطيعوا صبراً مع عموري فاخترقوا المنطقة الساحلية بين طرابلس والسويدية الواقعة تحت سيطرة المسلمين وأهمها جبلة واللاذقية في إصرار وعناد، وفي نفس الوقت أرسل الداوية رسولاً إلى الملك المنصور صاحب حماة يخبرونه أن أعداداً كبيرة من الصليبيين وصلت من الغرب، وأنهم قاصدون جبلة واللاذقية في نحو ستين ألف محارب، كل ذلك قصد به الصليبيون إضعاف عزيمة المسلمين ولكن الملك المنصور لم يتأثر بحرب الأعصاب وردّ على رسول الراوية قائلاً: (إنّا لا نجزع مما تقول ولا نكترث) ثم تقدم المنصور وأنزل الهزيمة بالصليبيين قرب اللاذقية وقتل منهم عدداً وساق الأسري إلى حماة[2].

لم تنقطع المناوشات بين المسلمين والصليبيين خلال تلك الفترة في شمال الشام بفضل ما قام به فرسان الإسبتارية في حصن الأكراد وحسن المرقب من إغارات دائمة على أراضي الملك المنصور الأيوبي صاحب حماة ليضطروه إلى تسليم حصن بعرين. إستعان الملك المنصور بقوات بعلبك وحمص وأنزل الهزيمة بالإسبتارية كما أرسل الملك الظاهر صاحب حلب حملة كبيرة ضد حصن المرقب (1204 – 1205) وحاصروا الحصن وهدموه وعادوا بعد أن كادوا يفتحون الحصن وأيديهم مليئة بالغنائم[3].

رأى العادل أنه من الخطأ أن يرهق قواته في مناوشات محلية بينما هناك حملة صليبية كبرى في طريقها إلى بلاد المسلمين ستطلب منه كل مدخر من طاقة وجهد. هذا إلى أنه لو فرض أن العادل دخل في حرب ضد عموري وانتصر عليه فان ذلك كان سيؤدي إلى لفت نظر الغرب الأوربي والصليبيين في القسطنطينة إلى ما يجري من أحداث في الشام مما يجعلهم يسرعون إلى الشام لإنقاذ الصليبيين، ولذلك أظهر الطرفان قدراً كبيراً

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص941.
[2] ابن واصل: مصدر سابق، ص 143-148.
[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص944.

من الحرص والحكمة والمرونة في تلك الأونة، غير أن عموري الثاني وجد أنه لا بد من القيام ببعض التحركات العسكرية ليحفظ مكانته أمام المسلمين والصليبيين جميعاً[1].

وأدرك الصليبيون في الشرق أستحالة قدوم حملة صليبية سريعة لنجدتهم فسعى ملكهم عموري الثاني إلى عقد هدنة مع السلطان العادل محمد، ولم يكن العادل بأقل رغبة منه في هذه الهدنة فقد رآها فرصة مواتية له بسبب إزدهار التجارة وعوائدها في حالة الهدنة مما يضمن له مورداً لمواصلة القتال ضد بقية الأيوبيين. وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في شهر سبتمبر 1204م. ذلك أن العادل ترل للصليبيين النصف الخاص بالمسلمين في صيدا واللد* والرملة كما أعطاهم الناصرة لتسهيل مهمة الحجاج المسلمين، وهذه المعاهدة تكشف عن حقيقة ما ذكرناه من أن خلفاء صلاح الدين لم يكونوا مثله وأنهم اتبعوا سياسة متخاذلة تجاه العدو الصليبي تقوم على رد الفعل وتجنح إلى التفريط والتسليم على الرغم من قدرتهم العسكرية وضخامة مواردهم وسوء أحوال الصليبيين بالمشرق. ومن ناحية أخرى نجدهم لا يتهاونون في شن الحرب ضد بعضهم البعض ولإسباب أهون بكثير. ويبدو أن العادل كان من الحرص على تحقيق تلك الرغبة بحيث تنازل للصليبية عن يافا التي كان قد إحتلها منذ أعوام وشاركهم في اللد والرملة[2].

وعندما توفي عموري الثاني لوزجنان في أبريل سنة 1205م آل عرش مملكة بيت المقدس إلى ماري إبنة هنري دي شبانيا وآل عرش قبرص إلى إبن عموري فوقعت إثر ذلك عدة معارك بين المسلمين والصليبيين وبخاصة في منطقة طرابلس حيث أراد الإسبتارية في حصن الأكراد الإستيلاء على مدينة حمص سنة 1206 –1207م فاستنجد صاحبها المجاهد أسد الدين شيركوه بالملك الظاهر غازي صاحب حلب الذي سيّر له عسكراً منع الفرنج عن ولايته[3].

وفي سنة 1207م إستولى بعض قراصنة الصليبيين من جزيرة قبرص على عدة سفن من إسطول مصر وأسروا من فيها، فغضب السلطان العادل لذلك وخرج على رأس جيش من مصر قاصداً عكا علما منه أن الوصي على مملكة بيت المقدس هو القوة

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص944.

* بلدة قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين/ ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج7، ص176.

[2] احمد بن علي القلقشندي: مصدر سابق، ص 184.

[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص649.

الكبرى الممثلة للصليبيين في الشرق، وسبق أن أرسل العادل إلى الوصي يذكّره بالمعاهدة القائمة بين المسلمين والصليبيين وأن من واجبه بوصفه كبير الصليبيين بالشرق أن يوقف القبارصة عند حدهم. ولكن الوصي أجاب:(بأن أهل قبرص ليس لي عليهم حكم) وأن الصليبيين ببلاد الشام لا يتحملون بأي حال ما يتبناه قراصنة قبرص من أاعمال، ثم انتهى الإشكال أخيراً برد أسرى المسلمين[1].

ولعلّ قناعة العادل بذلك الحل وإمعانه في مسالمة الصليبيين كان شيئاً لا يتفق بأي حال وحماسة المعاصرين ورغبتهم في الجهاد وهي الحماسة التي عبرت عن نفسها في جوامع دمشق ونابلس.

ثم كان أن إنتقل العادل إلى منطقة حصن الأكراد لمحاولة إرهاب الإسبتارية وإبعاد خطرهم عن حمص، ونصب معسكره عند بحيرة فدس قرب حمص واستدعى الملوك من أهل بيته والعساكر فأتي إليه الملك المنصور صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك فضلاً عن النجدات التي أرسلها إبن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب وأمراء سنجار والموصل والجزيرة وآمد. وعندما اجتمعت لدى العادل قوة بلغت نحواً من عشرة آلاف فارس قصد حصن الأكراد فنازله وأسر خمسمائة رجل وغنم ولكنه لم يستطيع الإستيلاء عليه لحصانته واكتفى بالإستيلاء على برج أعزاز إلى الجنوب الشرقي منه وأسر حاميته وغنم منه أموالاً وسلاحاً كثيراً[2].

وبعد ذلك زحف العادل على طرابلس في يوليو سنة 1207م ونصب عليها المجانيق وضيّق على أهلها أشد تضييق حتى أسرع بوهيمند الرابع صاحب طرابلس إلى طلب الصلح وسيّر مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا إلى الملك العادل فأجابه العادل إلى طلبه. وكان السلطان العادل قد استولى أثناء زحفه على طرابلس على حصن القليعات وهي قلعة صغيرة للصليبيين وقد إكتفى العادل طبقاً لسياسته المعتدلة تجاه الصليبيين بتخريب الحصن وإطلاق سراح حاكمه[3].

وهكذا ظلت سياسة العادل تجاه الصليبيين بالشام تتسم بطابع التسامح والبعد عن التعنت، ورغم أأن العادل قد إشترك في بعض المعارك لكنه لم يخوض غمراتها إلا مضطراً وبعد عدوان الفرنجة المتكرر وسرعان ما يعود إلى المهادنة والموادعة، فموقفه

---

[1] سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، 1957، ص39.
[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص949.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص166.

لم يكن حازماً تجاه الصليبيين مما أثار عليه ضيق الناس وهاجمه خطباء المساجد في صلاة الجمعة مثل سبط الجوزي* الفقيه والمؤرخ حينما خطب في جامع دمشق وأخبرهم أن نساء المسلمين قطعن شعورهن لتكون قيوداً لخيول المسلمين المجاهدين أهاج مشاعر الرجال ثم خرجوا لقتال الصليبيين في نابلس حيث لقيهم المعظّم بن العادل حاكم الشام وفلسطين وأخذ شعور النساء ووضعها على وجهه وهو يبكي في جامع المدينة. والحقيقة أن السلطان العادل كان يميل إلى مهادنة الفرنج وقد أنكر العلماء والفقهاء على العادل الأيوبي تهاونه في حفظ ثغور المسلمين ولاموه في ذلك مباشرة وأمام الناس ثم هاجم المسلمون المستوطنات الصليبية وألحقوا بها بعض الخسائر[1].

ويبدو أن السلطان العادل محمد كان يهتم بإبقاء العرش في ذريته أكثر من أي شئ آخر, وقد أدى ذلك إلى نشوء موقف سياسي لصالح الصليبيين، فمنذ تولى العادل العرش سنة 1200م لم تكن الدولة الأيوبية دولة مركزية بأي حال من الأحوال فقد كانت السيطرة على هذه الدولة تتطلب قدراً هائلاً من المهارة الدبلوماسية، وقد كان لسياسة العادل تجاه الصليبيين أثر كبير في المستقبل على الدولة الأيوبية تمثل في إطالة عمر الوجود الصليبي في مصر والشام. ولو أن العادل إستأصل الشر من جذوره لما بقى الصليبيون يستنزفون موارد الدولة الأيوبية الإقتصادية والبشرية ولما خاض الأيوبيون تلك المعارك مع الصليبيين والتي كانت نتيجتها سقوط دولتهم في يد من كانوا عبيدهم وهم المماليك[2].

كانت الأحوال في الدولة الأيوبية مع بداية العقد الثاني من القرن الثالث عشر في وضع سياسي وعسكري سيئ لم تحسمه المعاهدة التي أبرمها العادل محمد مع الملك الصليبي حنا دى برين 1210م لمدة ست سنوات وتقضي بإعادة التجارة مع سواحل الشام. والتي كانت في واقع الأمر بمثابة فترة إستعداد من جانب الصليبيين وأروبا لشن حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر بدلاً من الحملة التي ذهبت إلى القسطنطينية. وقد رغب العادل في تجديدها إلا أن فرسان الداوية* بحماقتهم المعهودة عملوا على استئناف الحرب ضد المسلمين وقاموا ببعض الأعمال الإستفزازية لإفتعال جو الحرب الأمر

---

* هو شمس الدين ابو المظفر يوسف بن كروغلو صاحب كتاب مرآة الزمان: مصدر سابق، ج1، ص268.

[1] قدري قلعجي: مرجع سابق، ص480.

[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص92- 93.

* فرسان الداوية أو المعبد أو الهيكل من أشهر جماعات الفرسان الدينية إبان الحروب الصليبية التي جمعت بين مبادئ الرهبة ومبادئ الفروسية وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها في الحروب ، وكذلك فرسان الداوية/ العبادي: دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك، ص90.

الذي استدعى خروج الملك المعظّم بن الملك العادل على رأس جيوشه قاصداً عكا وأنزل بضياع الصليبيين القريبة منها خسائرعظيمة. واذا كان المعظم قد إكتفى بذلك وتراجع عن عكا فإنه لم يلبث أن أقام فوق جبل الطور قلعة حصينة أحضر لها الصناع من كل بلد وحشدها بالرجال والذخائر والسلاح مما أثار الرعب في قلوب الصليبيين وجعلهم يحسون بأن العادل ينوي القيام بعمل خطير ضدهم فبادر حنا دي برين إلى طلب الصلح ولم يتردد العادل في الموافقة على ذلك الطلب وعقدت بينهما هدنة في يوليو سنة 1211م لمدة ست سنوات (1211–1217م)[1].

وما أن تمّ توقيع تلك الهدنة حتى استغاث حنا دي برين بالدول الأوربية طالباً منها إعداد حملة جديدة تصل إلى الشرق عند إنتهاء أجل الهدنة بقصد إسترداد بيت المقدس في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، وقد كان البابا أنوسنت الثالث مشغولاً بالإعداد لهذه الحملة الجديدة لتعويض الصدمة العنيفة التي تلقاها بسبب ما آل إليه مصير الحملة الرابعة لذا صادف الطلب هوىً وقبولاً في نفس البابا، وما كاد أجل الهدنة ينتهي حتى بدأت الجموع الصليبية تشق طريقها إلى الشرق، وكان أقربها وأطرفها ما سمّاه المؤرخون (حملة الأطفال) في سنة 1212م ، وهي من أغرب الحملات التي شهدها تاريخ الحركة الصليبية بأكمله وقد جاءت تعبيراً عن التدين العاطفي وكانت بمثابة رد الفعل الشعبي بفشل حكام أوربا في الإستيلاء على مدينة القدس بعد أن إستولى عليها صلاح الدين الأيوبي فقد قام صبي من الرعاة ظهر عند سانت دنيس بفرنسا يدعى إستيفن لم يكن قد تجاوز الثانية عشر سنة من عمره وأدعى أن المسيح عليه السلام أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس واجتمع حوله عدد من الأطفال بلغوا فيما يقال الثلاثين ألف وكلهم في سن الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمرهم. ووصل هذا الحشد إلى الشواطئ الإيطالية في سبع سفن فاستقبلهم الأهل إستقبالاً طيباً وبعد أن بقي الأطفال بضعة أيام في مرسيليا تطوع إثنان من أثرياء التجار بنقلهم إلى الشرق فحملتهم سبع سفن كبار وأبحرت بهم في عرض البحر ومن ذلك الوقت لم يسمع الغرب شيئاً عن مصير أولئك الاطفال[2].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص176.

[2] Edward Maslin: The middle a ges ,George Allen & Unwin LTD ,London. Museum Street , pp479.

لم تقتنع البابوية بتلك الجهود التي قام بها الأطفال وقد إستغلت تلك الحملة في إستثارة عواطف النصارى، لذلك دعا البابا أنوسنت الثالث لحملة صليبية جديدة في سنة 1213م لتتجه مباشرة نحو الشام لتعويض الجهد الذي بدده رجال الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية[1].

وفي سنة 1216م أرسل أنوسنت الثالث إنذاراً إلى السلطان العادل محمد بالهجوم على مصر والإستيلاء عليها إذا لم يقم بتسليم بيت المقدس إلى الصليبيين، وقد عمل البابا على أن يشارك كل من يستطيع من الأوربيين في هذه الحملة وجعل للمعدمين والضعفاء دوراً في الحرب ضد المسلمين وكان البابا على ثقة بأن الصليبيين سينتصرون في هذه الحملة وأن أيام الإسلام والمسلمين قد باتت معدودة ولكن البابا توفى في سنة 1216م قبل أن تتم الإستعدادات لهذه الحملة[2].

وصلت الحملة إلى الشام في خريف سنة 1217م وعقد مجلس الحرب في عكا واتفق فيه زعماء الصليبيين على البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التي شيدها العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل، فلما علم الملك العادل بوصولهم خرج من مصر مسرعاً بعساكره إلى الشام، فوصل إلى الرملة واللد ومنها إلى نابلس راجياً أن يقطع الطريق على الصليبيين عند عين جالوت ولكن وجد أن الصليبيين سبقوه إلى تلك المنطقة فآثر الإرتداد إلى بيسان. ولكنه فوجئ بإتجاه الصليبيين نحو بيسان وعدتهم ألفاً من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة. فخشى العادل إن لقيهم دون أن تتكامل عنده العساكر الإسلامية أن يكسروه ويتعرض لهزيمة شديدة فلا تقوم للإسلام بعد ذلك قائمة – وكان حازماً كثير الحذر – فاتجه صوب دمشق ونزل عند مرج الصفر. وهنا وجد الصليبيون الفرصة وهاجوا أهل بيسان وسائر الأعمال التي حولها وبذلوا فيهم السيف ونهبوا البلاد وأخذوا جميع غلاتها وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يفوق الوصف وغنموا منها غنائم وفيرة[3].

---

[1] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص90.
[2] محمد مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص43.
[3] ابن الاثير: مصدر سابق، ص 321.

وفـي نـوفمبر سـنة 1217م عبـر الصـليبيون الأردن وتوغلـوا حتـى وصـلوا إلـى نـوي وحاصروا بانياس ثلاثة أيام ثم عادوا إلى عكا مرة أخرى ومعهم من الغنائم والسبي ما لا يحصى كثرة سوى ماقتلوا وأحرقوا وأهلكوا[1].

وفي تلك الأثناء عمّ الهلع المدن الإسلامية بالشام فأرسل العادل إبنه المعظّم للدفاع عن بيت المقدس كما أصدر تعليماته لحماية دمشق وتحصينها وإفساد ما حولها من مزارع وعيون ومروج وبقي العادل في مرج الصفر يرقب الموقف ويتأهب للطوارئ وكتب إلى ملوك الشرق يدعوهم لنجدته فكان أول من وصل إلى دمشق أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومعه رجاله ففرح أهل دمشق بتلك النجدة[2].

وقبل وصول القوات الرئيسية للحملة الصليبية الخامسة لعكا عقد الملك حنا دي برين إجتماعاً مع زعماء منظمات الرهبان العسكرية (والداوية والإسبتارية) وتوصلا إلى خطة من شقين هجوم تقوم به قوة صغيرة على الملك المعظّم شرف الدين بن العادل في نابلس، وفي الوقت نفسه يتم إنزال بحري يقوم به الجيش الرئيسي على دمياط في مصر بحيث يتم الإستيلاء على مصر لتأمين الإستيلاء على بلاد الشام كلها. ولكن مجلس الحرب في عكا رفض هذا المشروع ولم يتوصلوا إلى خطة بديلة ومن ثم أخذوا في شن القارات[3].

وهكذا بدأت أحداث الحملة الصليبية الخامسة لتستمر أحداثها ووقائعها على مدى أربع سنوات بهذا الهجوم الذي بدأته القوات الصليبية في الثالث من نوفمبر سنة 1217م.

وبعد أن إستراح الصليبيون بعض الوقت في عكا إتجهوا لحصار قلعة الطور التي أنشاها الملك العادل في 1212م وأنفق عليها أموالاً كثيرة وكانت قلعة منيعة فهاجموا القلعة هجوما عنيفاً وتشددوا في قتال أهلها حتى تمكنوا من سورها وكادوا يملكونها ولكنهم مع ذلك لم يفلحوا في الإستيلاء عليها فعادوا أدراجهم خائبين إلى عكا ولما رأى الملك العادل ما سببته له القلعة الجديدة من متاعب خربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها ونقل ما فيها من آلات الحرب إلى البلدان خوفا من الصليبيين. و هذه علامة أخرى من علامات التردد والخيبة في مواجهة الصليبيين فقد أمر المعظم إبن العادل بهدم القلعة التي لم يكن قد مضى على تجديدها خمس سنوات

---

[1] ابن واصل: مصدر سابق، ص255.

[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص959.

[3] قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق، ص96.

ظناً منه بأن وجود هذه القلعة هو الذي جلب عليهم هجوم الصليبيين ومن ناحية أخرى تبعثرت هجمات الصليبيين وجهودهم بشكل يكشف عن فوضى القيادة في الجبهة الصليبية[1].

أما على الجبهة الإسلامية فقد بقى السلطان العادل محمد بمرج الصفر في فلسطين ودونما حراك. وهناك قصة ترويها المصادر التاريخية لا تخلو من مغزى ودلالة كما تجسد التناقض بين موقف الحكام والرعية آنذاك ونصها (ونزل العادل بمرج الصفر، ورأى في طريقه رجلاً يحمل شيئاً وهو يمشي تارة ويقعد أخرى، فقال له: " يا شيخ لا تعجل أرفق بنفسك. فقال له: يا سلطان المسلمين أنت لاتعجل أو أنا؟ إذ رأيناك قد سرت من بلادك، وتركتنا مع الأعداء، كيف لا نعجل؟...)[2].

هذه القصة التي قد تكون حقيقية وقد تكون مختلقة تبين موقف الرأي العام من السلطان العادل الأيوبي.

والواقع أنه لم يكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى الصدام بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي إذ انصرف الأيوبيون إلى منازعاتهم الداخلية وأفاد الملوك الذين تعاقبوا على ولاية حكومة بيت المقدس بعكا من هذه المنازعات ونزوع الأمراء المسلمين إلى الهدوء والسكينة في توطيد سلطانهم. ففي زمن العادل إنعقدت الهدنات بين المسلمين والصليبيين في السنوات 1198 – 1203م ، 1204– 1210،1211– 1217م. كما حرص البنادقة على الحصول على إمتيازات تجارية من الأمراء الأيوبيين في مصر والشام[3].

وفي بداية سنة 1218م رحل الصليبيون بعد أن قاموا بعدة غارات في جبال لبنان قرب مرج عيون وشقيف أرنون تعرضوا فيها لمصاعب جمة بسبب وعورة البلاد، مما أضعف من حجم القوات الصليبية في عكا بحيث لا يمكنهم القيام بأي عمليات ضد المسلمين حتى وصول القوات الصلببية من غرب أوروبا، وهكذا ظل الصليبيون هادئين داخل أسوار عكا حتى فصل الربيع حينما بدأت قوات صليبية جديدة تفد من جميع انحاء أوروبا[4].

---

[1] محمود الحويري: مرجع سابق، ص89.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص187- ابن واصل: مصدر سابق، ص256.
[3] استيفن راسمان: مصدر سابق، ص8.
[4] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص44.

وانتهت الحملة الصليبية دون أن تحقق عملاً ذا أهمية بالنسبة للموقف في الشام اللهم سوى هدم حصن الطور الذي هدمه العادل بنفسه.

الحملة الصليبية الخامسة في مصر 615هـ/1217م

أدى فشل الحملة الصليبية الثالثة في إسترداد بيت المقدس من المسلمين إلى حالة من القلق في غرب أوربا بوجه عام وعند البابوية بوجه خاص. وزاد هذا القلق عندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية وهي التي كان مفروضاً أن تتجه نحو مصر بوصفها حجر الزاوية في حركة المقاومة الإسلامية للصليبيين في الشرق الادني[1].

وبصورة أخرى فإن دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها وصلوا في نهاية القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر إلى نتيجة حاسمة هي أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة وأن الخطر الحقيقي الذي هدد بقاءهم واعترض وجودهم في بلاد الشام إنما نبع من مصر بالذات، لذلك أشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً وقالوا:(إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيرها من البلاد)[2].

والواقع أن تفكير الصليبيين في مصر بالذات لكم يكن جديداً ولا ترجع بدايته إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وإنما هو تفكير قديم قدم الحروب الصليبية ذاتها. ولكن الجديد في الأمر هو أن الصليبيين أيقنوا في نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الميلادي بأن الإستيلاء على مصر ضروري لتأمين مشاريعهم وبقائهم في فلسطين وأنه بدون سيطرتهم على مصر لن تستقر حياتهم في الشام، لذلك دعا الملك حنا دي برين ملك بيت المقدس جموع الصليبيين الذي وفدوا إلى بلاد الشام عام 1218م للقيام بحملة صليبية على دلتا مصر ووجد الملك تشجيعاً من قبل صليبيي الشام وقبرص بالإضافة إلى تشجيع البابا وملوك أوروبا[3].

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص963.
[2] ابن واصل: مصدر سابق، ص 258.
[3] حامد زقان غانم: محاضرات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الثقافة العربية، ص46.

حشد الصليبيون حشودهم في عكا بعد أن قرر مجلس الحرب الصليبي في عكا مهاجمة دمياط بقيادة الملك حنا دي برين ملك بيت المقدس ثم أبحروا قاصدين مصر بعد أن تركوا في عكا حامية قوية قوامها خمسمائة فارس، وخرج حنا دي برين على رأس ما استطاع جمعه من السفن والرجال في 27 مايو 1218م ووصلوا دمياط ولم يجدوا أي مقاومة ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط وأحاطوه بخندق وبنوا حول الخندق سوراً وأخذوا في محاربة أهل دمياط. وكان المكان مثالياً من وجهة النظر الدفاعية ولكنه لم يكن مناسباً لقوات تريد أن تواصل هجومها للإستيلاء على المدينة وميناءها. وفي غضون عدة أيام كانت سفن بقية الإسطول الصليبي قد وصلت كلها قبالة دمياط[1].

كانت دمياط على درجة كبيرة من الحصانة إذ كانت تمتد بعرض مجري النيل مآصر وهي سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة من البحر المتوسط من عبور النيل إلى دمياط هذا بالإضافة إلى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجري النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها فقد إقتدى العادل بأخيه صلاح الدين في تحصين ثغور مملكته ولا سيما ثغر دمياط الذي كان المجاز المفضل لدى الصليبيين لهذا شيّد في سنة 1217 مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية للنيل وشحنها بالمقاتلة والآلات الحربية حتى أصبحت منذ ذلك الحين جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها[2].

كان نزول الصليبيين على دمياط مفاجأة مذهلة للسلطان العادل محمد وإبنه الكامل الذي كان حاكم مصر، وعندما علم الكامل بنزولهم في مواجهة دمياط خرج بالجيش المصري للدفاع عنها ضد الصليبيين ونصب معسكره بمنزلة العادلية قرب دمياط ليكون على اتصال بالمدينة ولمنع الصليبيين من العبور إليها وصار يركب كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط لتدبير الإمور وإعمال الحيلة في مكايدة الصليبيين. هذا في الوقت الذي استدعى العادل إبنه الملك الأشرف فسار في عسكره إلى حمص ودخل بلاد الصليبيين ليشغلهم عن محاصرة دمياط[3].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص223.
[2] السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ج1، 1993، ص230.
[3] أبو الفداء الحافظ بن كثير: مصدر سابق، ص95.

وقد وجد المسلمون فرصة كافية للإستعداد والدفاع عن دمياط بنزول الصليبيين على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط. وكان العادل أبوبكر في هذا الأثناء يرسل إمداداته العسكرية إلى إبنه الكامل وظل الحال متجمداً تقريباً على مدى أربعة أشهر، فتجمع في هذه الفترة عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده[1].

قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة إلى أن تمكنوا من الإستيلاء عليه في 24 أغسطس سنة 1218م وقطعوا المآصر التي كانت تعترض مجرى النهر وتحول دون دخول السفن الصليبية فيه ودمروا جسر المراكب الذي كان يصل مدينة دمياط بالجزيرة وأقاموا بدلاً منه جسراً يصل معسكرهم بالمدينة[2].

وقد كان ذلك خسارة كبرى إذ إعتبر المعاصرون ذلك البرج مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية[3].

كان السلطان العادل محمد ما يزال مقيماً بمرج الصفر عندما وصلته أنباء سقوط برجي السلسلة مفتاح الدفاع عن دمياط فلم يحتمل الخبر وتأوه تاوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض من قهره من ساعته مرض الموت. ثم توفي في يوم الخميس31 أغسطس 1218م، وتم إخفاء خبر وفاته ريثما يقوم أبناء البيت الأيوبي بترتيبات الوراثة وانتقال الحكم. وكانت مدة ملكه لمصر تسع عشرة سنة وشهراً واحداً وسبعة عشر يوماً وهي فترة طويلة بالإضافة إلى فترة خدمته في حكم أخيه صلاح الدين الأيوبي من قبل ومات عن عمر يناهز الخمسة وسبعين عاماً دون أن يحقق إنجازاً يُحسب له وكانت سياسته إزاء الصليبيين من أهم أسباب إسترداد عافيتهم العدوانية[4].

يلاحظ أنه بعد وفاة العادل ثبت أولاده كل منهم في المملكة التي أعطاها له أبوه ويلاحظ أن الأولاد قد إتفقوا إتفاقاً حسناً في هذا الوقت ولم يحدث بينهم من الخلافات ما جرت عليه العادة بين أبناء الملوك بعد وفاة آبائهم ، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص98.
[2] إبن الأثير: مصدر سابق، ج11، ص324.
[3] محمود سعيد عمران: مرجع سابق، ص206.
[4] أبي الفداء: مصدر سابق، ج3، ص119.

يثق في الآخر ثقة عمياء فكانوا نعم الملوك في الجهاد والدفاع عن الإسلام. وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على هزيمة الصليبيين[1].

لم يحدث تغيير يذكر في مجريات الأحداث نتيجة لوفاة السلطان العادل محمد، فقد استمرت العمليات العسكرية حول دمياط، كما أن وتيرة الأحداث السياسية الداخلية بين الأيوبيين سارت على نغمتها المعتادة.

وهكذا كان الأيوبيون يخرجون من محنة ويقعون في أخرى، أرايت كيف استقبلوا صلاح الدين يخرجون به من نصر إلى نصر ثم كيف استقلبوا من جاءوا بعده؟! يلتفون حولهم ويضعون عليهم آمالهم ولكنها سرعان ما تخيب لقد إلتفوا حول العزيز عثمان وتطلعوا إليه ليبلغوا به مبلغ أبيه حتى إذا ما استقر توفي ثم إذا هم بعد العزيز يصلونها فتناً لم يجدوا لهم منها مخرجاً[2].

ولم تكد أخبار تلك الإنتصارات التي أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام حتى تشجع إخوانهم في عكا فخرج فريق من حاميتها لمطاردة بعض المسلمين الذين أغاروا على الضياع القريبة. ثم لحقت بهم بعد ذلك بقية الحامية الصليبية في عكا حتى أحاط بهم جيش أيوبي عدته بضعة آلاف من أهل دمشق قرب القيمون فأبادوا أولاً عن آخر ولم ينج منهم إلا مائة فارس من الدواية أسروا وسيقوا إلى بيت المقدس منكسة أعلامهم[3].

ثم خرج الملك المعظم لمهاجمة قيسارية كي يصرف أنظار الصليبيين عن مصر فقرر هجوم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من آلات الحصار فدخل المسلمون المدينة وهدموها. ثم لجأ الأشرف موسى الإبن الثالث للسلطان العادل إلى مهاجمة الصليبيين في إمارة طرابلس فأغار على حصن صافينا وحصن الأكراد. كما أسرع المعظم سنة 1219م إلى تدمير عدة حصون قوية في فلسطين خشية سقوطها في أيدي الصليبيين مثل حصن الطور وتبنين وبانياس وصفد. بل أكثر من هذا كله فكّر المعظم في هدم مدينة بيت المقدس وكانت حصينة إلى الغاية وشرع فعلاً في هدم أبراجها وسورها في

---

[1] محمود سعيد عمران: مرجع سابق، ص229.
[2] إبراهيم الأبياري: مرجع سابق، ص95.
[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص969.

مارس سنة 1219م حتى لا يحصل منها الصليبيون على أية فائدة الأمر الذي أوقع المدينة في حالة بالغة من الأسى والفوضى[1].

وأخيراً يبدو أن الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي كانت بهدف تأمين الكيان الصليبي الهزيل الذي كان يعاني نوعاً من الضعف البنيوي والهيكلي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وسكانياً منذ الضربات القاصمة التي تلقاها على أيدي المسلمين طوال الفترة التي امتدت من حكم عماد الدين زنكي حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي، صحيح أن الخطر من جانب المسلمين قد توارى مؤقتاً بسبب سلوك الأيوبيين السياسي والعسكري بعد وفاة مؤسس دولتهم، ولكن الكيان كان قد دخل بالفعل مرحلة خطيرة من التدهور والإنحلال. ومما لا شك فيه أن مجهودات الأيوبيين لصد الهجوم الصليبي في عهد العادل على بلاد المشرق بطريقة مباشرة وغير مباشرة قد ألقى ذلك عبئاً ثقيلاً على موارد البلاد الإقتصادية والإجتماعية أدى لضعف الدولة الأيوبية ثم سقوطها فيما بعد.

[1] ابي الفداء: مصدر سابق، ج3، ص122.

الفصل الثالث

الصراع الأيوبي الصليبي زمن السلطان الكامل محمد
616-635هـ/1218 – 1238م

- ✓ سقوط دمياط 1219م.
- ✓ الحملة الصليبية السادسة 1228م – 1229م.
- ✓ صلح يافا 626هـ/ 1229م.

الصراع الأيوبي الصليبي زمن السلطان الكامل محمد

استقل الملك محمد بن الكامل بملك مصر بعد وفاة أبيه وكان عليه مهمة طرد الصليبيين من مصر. لذا أخذ الكامل في محاربة الصليبيين وهم يحاصرون دمياط ستة عشر شهراً ظهرت خلالها الخصال السياسية السلبية للسلطان الكامل حيث أرسل رسولاً إلى الملك حنا دي برين يطلب منه سفراء لوضع السلام وتسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا رغم أن عرض السلطان كان في غاية الكرم والتخاذل.

عادت الأعمال العسكرية مرة أخرى فلم تستطيع دمياط المقاومة فاقتحمها الغزاة في نوفمبر 1219م فشعر الكامل بالحرج لاسيما وأن البلاد كان يتهددها الغزو المغولي الزاحف من الشرق مما جعل الكامل يجدد العرض للصليبيين مرة أخرى ولكنهم رفضوه أيضاً وتحركوا نحو القاهرة في وقت إرتفاع النيل وعند وصولهم البرامون وجدوا أنفسهم في مأزق فلاهم يستطيعون العودة إلى دمياط ولا هم يستطيعون القتال في الوحل بعد ان بلغت المياه ركبهم ولم يبق أمامهم سوى الصلح فأرسلوا إلى الكامل في أغسطس 1221م يعرضون إستعدادهم لترك دمياط والجلاء عن البلاد مقابل السماح لهم بالخروج سالمين إلى بلادهم دون قيد أوشرط وهكذا وفي وسط أوحال الدلتا تخلى الصليبيون عن أحلامهم ثمناً لحريتهم. وأخيراً تم الجلاء عن دمياط في 7 سبتمبر 1221م.

ولأن فشل الحملة كان في التحليل الأخير ضربة موجعة لهيبة البابوية التي كانت في عز صراعها مع الإمبراطوية لتأكيد هيمنتها في أوروبا فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة فكانت الحملة الصليبية السادسة.

سقوط دمياط 1219م

لم تغيّر وفاة العادل محمد شيئاً في التوازن العسكري بين المسلمين والصليبيين كما أنها لم تمس أسس النظام السياسي والإداري في الدولة الأيوبية إذ خلفه إبنه الكامل ولي عهده في حكم مصر كما خلفه في حكم الشام إبنه الملك المعظّم عيسى ومحمد بن الكامل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سادس ملوك مصر من الأيوبيين إستقل بملك مصر بعد وفاة أبيه لأن الكامل كان متولى سلطنة مصر في حياة والده العادل.

ولما قسّم العادل الممالك في أولاده من سنين عديدة أعطى الكامل محمداً هذا مصر فلما توفي العادل تفرد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها واستقل بإمورها وتدبير أحوالها. وكان أكبر أولاد العادل. وكان شجاعاً ذكياً فطناً يحب العلماء ويلقي عليهم المشكلات ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح ويثبت بين يدي العدو. وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء متمسكاً بالسنة حسن الإعتقاد حازماً في إموره لا يضع الشئ إلا في موضعه من غير إسراف ولا إقتار[1].

وكان الكامل ملكاً مهيباً جليلاً أمنت الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه وقد ورث عن أبيه أساليبه في الحكم ووسائله في السياسة وورث أيضاً الميل إلى مهادنة الصليبيون والإكتفاء برد الفعل في التعامل معهم ولا شك في أن السنوات التي قضاها السلطان الكامل في حكم مصر نيابة عن أبيه من ناحية، ورؤيته لأبيه وهو يبذل قصارى جهده لكي يتجنب الحرب ضد الصليبيين من ناحية ثانية، وإشتراكه في حروب أبيه ضد الأيوبيين الآخرين من ناحية ثالثة قد تركت بصماتها على سياسات الكامل محمد وفكره السياسي والعسكري[2].

وبعد إستقلاله بالملك في أغسطس سنة 1218م خطب له إخوته وأهل بيته في بلادهم وضربوا السكة بإسمه وكان محبوباً لدى الناس مؤيداً في الحروب[3].

كان على الكامل مهمة طرد الصليبيين من مصر فأخذ يعمل على عرقلة تقدم الإسطول الصليبي في النيل ولكنه فشل في ذلك واستطاع الصليبيون الوصول إلى بؤرة التي تقابل منزلة العادلية حيث يقيم الملك العادل. وقد زحف الصليبيون إلى المعسكر الأيوبي عن طريق البحر وزحفوا إليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شئ لأن الإمدادات متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الصليبيين وهم ممتنعون لا يصل إليهم إذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصار ضيق ولا ضرر[4].

والغريب أن الكامل لم ينتقل إلى مهاجمة الصليبيين على الضفة المقابلة من النيل إلا بعد أن وصلتهم الإمدادات المنتظرة، لذا أخفق هجومه وتكبد خسائر فادحة وأدرك المسلمون الشتاء فهاج البحر على معسكر المسلمين وغرقت خيامهم فعظم البلاء واشتد

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص230.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 102.
[3] ابن خلكان: مصدر سابق، ج5، ص81.
[4] Phlip K.: History of The Arab, pp 653

الكرب وتشدد الصليبيون في القتال ولم يبق إلا أن يملكوا دمياط فأرسل الله سبحانه وتعالى ريحاً عنيفاً قطعت مراسي مرمه وهي سفينة كبيرة جداً كانت للصليبيين من عجائب الدنيا فإذا هي مصفحة بالحديد لاتعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً فسارت تلك المرمة إلى البحر الذي فيه المعسكر الأيوبي فملكها المسلمون[1].

وفي نفس الوقت أرسل الملك الكامل محمد الأيوبي سبعين رسولاً يستنجد بأهل الإسلام على قتال الصليبيين ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم ويخوفهم من تغلب الصليبيين على مصر فانهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شئ من الممالك بعدها فقدمت إليه النجدات من حماة وحلب[2].

استمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها في مأمن من العدو إذ كان النيل يفصل بينهما والإمدادات تصلها بسهولة من العادلية، ولكن الظروف سرعان ما تغيرت إذ وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها خلع السلطان الكامل عن العرش وتولية أخيه الفائز محله في الحكم ذلك أن عماد الدين بن أحمد على المعروف بإبن المشطوب دبّر مؤامرة كبرى داخل معسكر الكامل وانضم إليه فيها معظم قادة الجيش الأكراد، واكتشف الكامل المؤامرة في حينها ولكنه خشي على نفسه ولم يشأ أن يواجه المتآمرين بالحقيقة وإنما أخذ يداريهم لكونه في قبالة العدو ولا يمكنه المنافرة[3].

هكذا دبت الفرقة في معسكر المسلمين وساء موقف الكامل فجأة أمام الخطر الصليبي من جهة، وتآمر قادة جيشه من جهة أخرى فتولاه القلق حتى فكر في الفرار والإلتجاء إلى اليمن حيث كان إبنه المسعود يتولى حكمها لولا أنه علم بقرب وصول أخيه المعظّم من الشام، فانسحب من معسكره في العادلية ليلاً قاصداً أشموم طناح فنزل بها. وعندما أصبح الصبح ولم يجد الجنود السلطان بينهم هجروا معسكرهم أيضاً تاركين خلفهم كل ما معهم من مؤن وسلاح، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة فعبروا النيل إلى البر الشرقي آمنين دون أي مقاومة واستولوا على معسكر العادلية وغنموا ما فيه، ثم صعدوا شمالاً إلى مدينة دمياط وأحدقوا بها من البر والبحر وذلك في يناير 1219م. وبنجاح

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص231.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص232.
[3] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص23.

الصليبيين في عبور نهر النيل بدأت المرحلة الثانية أمام حملة حنا دي برين وهي حصار دمياط للإستيلاء عليها[1].

وهكذا ساء الموقف في مصر نتيجةً لفرار الكامل ومرت مصر بفترة من الهلع والحيرة والقلق تنذر بأسوأ مصير، فعظم البلاء واشتد الكرب. وهكذا كانت المطامع الأيوبية الصغيرة سبباً في نصر لا يستحقه الصليبيون فألحوا في القتال مما أنذر بإنهيار جبهة المسلمين إنهياراً تاماً لولا إستجابة المعظّم عيسى لنداء أخيه الكامل وحضوره من دمشق إلى مصر، فلما سمع الكامل بقربه توجّه إليه ولقيه واشتد ظهره وقويت به شوكته وأعلمه بما كان من أمر المشطوب فوعده بإزالته عنه وأعاد إليه الثقة بنفسه وتحمل عبء الخلاص من المتأمرين فعنّفهم ونفى إبن المشطوب زعيم مؤامرة الإنقلاب إلى الشرق ليسجن في الكرك ثم جهّز أخاه الفائز إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً. وهدأت أعصاب السلطان وبدأ يعيد النظر في إجراءات القتال ضد الصليبيين الذين أحكموا حصارهم على دمياط ثم جاءتهم إمدادات جديدة من قبرص[2]

وقد نجح الأخوان بهذا أو ذاك في القضاء على تلك الفتنة التي أوشكت أن تطل برأسها فتفسد على الكامل ملكه وتشغله عن حربه ضد الصليبيين غير أن تلك الفتنة لم تمض سلماً كلها، فقد شغلت الكامل عن أن يفرغ الفراغ كله فإذا هو مهزوم أمام الصليبيين وإذ هم يستولون على دمياط ثم يخرجون من دمياط قاصدين القاهرة[3].

عمل الكامل على جمع شتات الجيش وسارع مع أخيه إلى فارسكور جنوبي العادلية لمهاجمة الصليبيين من الخلف إذا هاجموا دمياط، وبعثا بالرسل إلى العواصم الإسلامية لموافاتهما بالإمداد فبعث الكامل إلى أخيه الأشرف موسى شاه أرمن صاحب مملكة خلاط يستحثه على سرعة الحضور وأصدر المكاتبة بهذه الابيات:

يا مسعدي إن كنت حقاً مسعفي فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرفلاً أو موجفاً بتجشم في سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تُنخ إلا على باب المليك الأشرف

---

[1] ابن الاثير: مصدر سابق، ج11، ص325.
[2] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص48.
[3] احمد مختار العبادي: في تاريخ الايوبيين، ص233.

فسار الفائز فمضى إلى دمشق ورحل إلى حماة ثم سار إلى الشرق فانتظم أمر الكامل وقوى ساعده وترتبت قواعد حكمه[1].

وبفضل الله وهذه الإجراءات الجديدة التي اتخذها المعظّم إستطاعت دمياط الصمود وقاومت ببسالة الحصار الصليبي تسعة أشهر عانى أهلها ألواناً رهيبة من الجوع واليأس والعياء وأنزل الله عليهم الصبر فصبروا صبرا لم ير مثله وثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار رغم المحاولات العنيفة التي بذلها الصليبيون للإستيلاء عليها. وأخذ الكامل في محاربة الصليبيين وهم قد أحدقوا بها وحاصروها وضيّقوا على أهلها، حالوا بينه وبينها ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل يدعى شمائل كان قد قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة فكان يخاطر بنفسه ويسبح في النيل وقد إمتلأت به مراكب الفرنج فيدخل إلى مدينة دمياط ويأتي السلطان بأخبار أهلها فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها ووعدهم بقرب وصول النجدات فحظي بذلك عند الكامل[2].

كان الموقف العسكري ساكناً على الجانبين، فالسلطان ينتظر مزيداً من القوات ويسيطر عليه التردد. والصليبيون منقسمون على أنفسهم تحيّرهم تصرفات بلاجيوس* وتفرقهم أهواءهم، وطال الحصار على هذا الحال ستة عشر شهراً وإثنين وعشرين يوما. وفي أثناء الحصار ظهرت الخصال السياسية السلبية للسلطان الكامل، وربما كان أبوه السلطان العادل قد أوصاه بمهادنة الصليبيين بدلاً من محاربتهم، وربما نصحه بأن طريق المفاوضات أكثر أمناً من طريق الجهاد[3].

بدأ السلطان الكامل يفكر في المفاوضات مع الصليبيين منذ شهر فبراير 1219م وتم إرسال رسول إلى الملك حنا دي برين يطلب إرسال سفراء لوضع شروط السلام وبذل لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط فلم يرضوا. هكذا قرر الكامل أن يشتري السلام بالتنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين بدماء الشهداء وجهاد السنين، ولم يكن الأمر بالنسبة له أكثر من

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ج 1، ص234.

[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 105.

* هو الكاردينال البرتغالي الذي أرسله البابا هونريوس الثالث ليكون المندوب البابوي في الحملة الصليبية الخامسة ولكنه لم يكن يتمتع بالخصال الشخصية التي تمكنه من القيام بهذا العمل، إذ كان رجلاً ذا طاقة هائلة ولكنه كان ضيق الافق قصير النظر مستبداً مغرماً بنفسه وعنيداً بشكل مثير/ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص103.

[3] قاسم عبده قاسم: المرجع نفسه، ص105.

مجرد صفقة يتنازل فيها عن القدس وغيرها مقابل رحيل الصليبيين عن دمياط ليتحقق له السلام الذي يمكّنه من مواصلة نضاله ضد الأيوبيين الآخرين[1].

كان عرض السلطان الكامل غاية في الكرم والتخاذل ولكن الفرنج رفضوه وعادت الأعمال العسكرية مرة أخرى تشغل مسرح الأحداث وكان المقاتلون المسلمون بالمدينة حوالي عشرين ألفاً أنهكتهم الأمراض وقلة الأقوات فلم تستطع دمياط الباسلة الإستمرار في مقاومة حصار الصليبيين؛ فاقتحمها الغزاة في 5 نوفمبر سنة 1219م وارتكبوا بها واحدة من مذابحهم الشهيرة وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً ورفعوا أعلامهم على السور وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر وجعلوا جامعها كنيسة وبثوا سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشتد البلاء وبكى الكامل والمعظّم بكاءاً شديداً. واستقر الصليبيون في دمياط ولكن الخلافات نشبت بينهم بحيث مضي عام ونصف العام وهم غير قادرين على القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة[2].

ولكن الذي فات الكامل أن يدركه في دمياط أدركه في المنصورة فكانت النجدات والإمدادات تصل إليه بإستمرار بقيادة إخوته وأقربائه أمراء الأيوبيين في الشام إلى جانب المصريين والعربان من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي ونودي بالنفير العام بألاّ يبقى أحد حتى لا يتغلب الصليبيون على مصر فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها فأجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر[3].

كذلك وصلت إلى الصليبيين إمدادات وفيرة من أوربا والإمارات الصليبية في الشام فقوي مركزهم أمام دمياط وتقدموا منها بجيوشهم وأساطيلهم ونزلوا جنوباً تجاه بلدة طلخا شمالي المعسكر الإسلامي بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناة أو بحر أشوم طناح وبحر دمياط. وكان الصليبيون في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف فارس[4].

ويبدو أن وصول تلك الإمدادات للصليبيين قوّت مركزهم امام دمياط الامر الذي جعل الكامل بشعر بالحرج البالغ لا سيما وان البلاد كان يتهددها غزو جديد اكثر خطراً من الخطر الصليبي القادم من الغرب وهو الغزو المغولي الزاحف من الشرق مما جعل

---

[1] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص49- 50.
[2] على السيد علي و قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص107.
[3] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص110.
[4] محمود سعيد عمران: مرجع سابق، ص234.

الكامل يتقدم إلى الصليبيين مرة أخرى بعرض سخي مقابل الجلاء عن مصر وهو إستعداده للموافقة على إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة وإرجاع المملكة الصليبية إلى معظم مساحتها الأولى قبل فتوح صلاح الدين ما عدا الكرك والشوبك. ولكن بلاجيوس القائد الأعلى للحملة رفض هذا العرض الذي تقدم به الكامل رغم أنه كان في غاية الكرم والتخاذل وذلك لإعتقاده بسهولة الإستيلاء على البلاد المصرية وأيّده في موقفه الداوية والإسبتارية[1].

وقد وقع بلاجيوس زعيم الحملة في خطأ وهو إصراره على توجيه هجماته ضد معسكر الكامل والمعظّم في فارسكور بدلاً من الإكتفاء بحصار دمياط، وشرعوا في مهاجة معسكر المسلمين وكانت النتيجة فشل الهجوم وفرار الصليبيين ووقوع بعضهم في الأسر مما دعم مركز المسلمين وأعاد الثقة إلى نفوسهم[2].

وأراد الكامل أن يستغل ذلك النصر ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرضه الخاص بالجلاء عن مصر مقابل إعطائهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل ما عدا الكرك والشوبك فرفض الصليبيون وقالوا لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله. وكذلك الحصول على تعويض مالي قدره خمسمائة ألف دينار لتعمير أسوار القدس التي خربها المسلمون فرفض الملك الكامل هذه الشروط. فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم. وأشتد القتال بين الطرفين براً وبحراً وقامت البحرية الأيوبية النيلية بدور هام في تلك المعارك إذ إستطاع الإسطول المصري أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالمؤن والذخائر إلى ميدان القتال وأن يستولي على عدد كبير من رجالها وأسلحتها ومؤنها[3].

ومن الواضح أن الذي دفع الكامل إلى تكرار عرضه على الصليبيين مرة بعد أخرى هو شعوره بأن البلاد الإسلامية لن تستطيع نجدته لإشتغالها بالخطر المغولي الذي يتهددها والمجاعة التي كانت تهدد الشعب المصري لإنخفاض فيضان النيل في تلك السنة مما جعلها من أشق السنين وأشدها على مصر[4].

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص974.
[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص975.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص244.
[4] ابن الاثير: مصدر سابق، ج11، ص329.

ثم أن المعظّم نفسه إعتراه القلق وأخذ يفكر في العودة إلى الشام في الوقت الذي ساء موقف حامية دمياط وتعرضت للمجاعة والوباء فأنهكتهم الأمراض وغلت عندهم الأسعار وامتلأت الطرقات بالموتى وعدمت الأقوات وصار السكر في عزة الياقوت وفقدت اللحوم، فتسور الفرنج السور وملكوا منه البلد ووضعوا السيف في الناس فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم[1].

وحاول الكامل إمداد دمياط بخمسمائة من مماليكه بقيادة إبن الجرخي ومعهم معونة من المؤن والأهالي ولكن هذه النجدة وقعت في أيدي الصليبيين واستولوا على ما معها وقتلوا جميع رجالها وصفت رؤوس القتلى على الخنادق[2].

وبينما كان المسلمون في مصر يستعيدون معنوياتهم ويعززون قواتهم كان الخلاف يشتد بين الصليبيين بعد إحتلال دمياط لرغبة كل فريق في الإستئثار بحكمها وتولى زعامة الحملة فرحل حنا دي برين إلى عكا في ربيع 1220م تاركاً مهمة القيادة للكاردينال بيلاجيوس وحده وانصرف هذا إلى تعمير دمياط وتوطين الجاليات الصليبية فيها وتباطأ في الزحف نحو القاهرة في إنتظار إمدادات جديدة وتراخت يده عن الحصار البحري الذي كان الصليبيون قد ضربوه بين دمياط وعكا، فنشطت السفن الإسلامية هناك واحرقت عشر سفن للعدو[3].

وكان السلطان قد إختار مكان معسكره الجديد بناء على إعتبارات إستراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية ومن بين هذه الإعتبارات الإستراتيجية أن هذا الموضع المثلث حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير* والنيل فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه براً إلا بعد عبور البحر الصغير المعروف بشدة إنحدار جانبه وسرعة تياره، كما لا تستطيع الوصول إليه عن طريق النيل إلا بإسطول نهري طويل بعيد عن قواعده[4].

ومن ناحية أخرى كان معسكر الكامل قريباً من أماكن قدوم النجدات العسكرية من الشام، كما كان قريباً من من أماكن الإمدادات الغذائية[5].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص237.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص242.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص108.
* هو فرع دمياط ينقسم شمال المنصورة الى فرعين يتجه احدهما الى دمياط وينحرف الآخر شمالي شرقي حيث يمر بمدينة أشموم طناح إلى أن يصب في بحيرة تبنين وهو المعروف ببحر أشموم/ القلقشندي: مصدر سابق، ص381.
[4] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص54.
[5] على السيد علي و قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص107.

وكانت خلافات الصليبيون في معسكرهم داخل دمياط قد منحت الكامل منحة سخية غير مقصودة؛ فقد إنتهز الكامل فرصة الجمود الصليبي ونقل معسكره من فارسكور إلى قبالة طلخا حيث خيّم بها وأطلق على تلك المنزلة أو القلعة الجديدة إسم المنصورة. وهكذا ولدت مدينة المنصورة مدينة عسكرية وقاعدة لقوات المصريين بقيادة السلطان الكامل، وأخذ جواسيس السلطان يخرجون من هذه القاعدة لإستطلاع أحوال الجيش الصليبي[1].

وبعد أن تيقّن الملك الكامل من نيّة الصليبيين في الزحف على القاهرة أرسل إلى إخوته بالشام طالباً النجدة ومجدداً عرضه على الصليبيين ولم يلبث الصليبيون أن شرعوا في الزحف تجاه القاهرة عن طريق النيل وكان ذلك في وقت إرتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الشمس بعد أن كان متباطئاً في الزحف نحوها وذلك للأخبار التي وصلته عن قرب وصول الإمبراطور فريدريك الثاني* على رأس حملة صليبية كبيرة، بل أن الإمبراطور نفسه أرسل مندوبين عنه إلى الصليبيين في دمياط إشارة إلى قرب وصوله[2].

ثم كان أن وصل لويس دوق بافاريا على رأس قوة كبيرة من السادة الإقطاعيين والفرسان الأوربيين إلى دمياط فتشجع بلاجيوس وقرر في أواخر يونيو 1221م الزحف نحو القاهرة بعد أن تأخر كثيراً، وأرسل إلى الملك حنا دي برين في عكا يطلب منه الحضور للمشاركة في تلك العملية وقد تمنع في أول الأمر ولكنه خشي من أن يتعرض للوم الرأي العام المسيحي ويتهم بعرقلة الجهود الصليبية فحضر إلى دمياط ووصلها في 7 يوليو 1221م ومعه عدد كبير من القوات وتحرك الجميع نحو القاهرة بعد أن خرجت أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها وقد زيّن لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر. وعندما علم الكامل بنيّة الصليبيين في الزحف على القاهرة جدد عرضه عليهم للمرة الأخيرة، ولكن الصليبيين إمتنعوا وقالوا لابد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمّر بها ما خرّبتم من أسوار القدس مع أخذ ما ذكر من البلاد وأخذ الكرك والشوبك أيضاً[3].

---

[1] المرجع نفسه: ص108.

* هو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (ألمانيا – إيطاليا – صقلية) نشأ في جزيرة صقلية وتعلم فيها وولد من أب ألماني هو هنري السادس وأم إيطالية هي الأميرة كونستانس وريثة صقلية /سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، الجزء الاول، ص402.

[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص980.

[3] المقريزي: مصدر سابق، ص39.

وهكذا تقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاثة جهات هي بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً وقد بلغ الفيضان ذروته ثم أن السفن الإسلامية وقفت في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية وتحول دون إتصال الصليبيين أثناء زحفهم بقاعدتهم دمياط[1].

وكان موقف الصليبيين قد أصبح سيئاً للغاية بعد أن قطع المسلمون السدود وحطموا الجسور فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط وعندئذ تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم فأرادوا الإرتداد بسرعة نحو دمياط ولكن الكامل كان قد أنزل عند شارمساح ألفي فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الصليبيين وبين دمياط[2].

وسرعان ما تجمد موقف الصليبيين عند بلدة البرامون فلاهم يستطيعون العودة إلى دمياط ولاهم يستطيعون القتال في الوحل بعد أن بلغت المياه ركبهم، وأخيراً لم يبق أمامهم سوى الصلح بعد أن عاينوا الهلاك وأدركوا أن الهزيمة تنتظرهم؛ فهدموا خيامهم ومجانيقهم وأشعلوا النار فيها. وقد كانت العامة من المقاتلين المسلمين كانت تكر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر وما لبثوا أن أصابهم الذعر وشاع الإضطراب في صفوفهم ولم يجدوا مفراً من طلب الأمان، فأرسلوا إلى السلطان الكامل في أغسطس 1221م يعرضون إستعدادهم لترك دمياط والجلاء عن البلاد مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم يعودون إلى بلادهم سالمين دون قيد أو شرط[3].

وهكذا وفي وسط أوحال الدلتا تخلى الصليبيون عن أحلامهم ثمناً لحريتهم، وقبِل الملك الكامل ذلك العرض على الرغم من معارضة أخويه المعظّم والأشرف موسى اللذان أرادا إستغلال الأزمة التي وقع فيها الصليبيون للقضاء عليهم، في حين كان الكامل يتوقع مجئ الإمبراطور فريدريك الثاني على رأس حملته الصليبية فينتقم مما حل بالصليبيين ويحتفظ بدمياط، إلا أن الكامل إشترط على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم يبقون لديه حتى يسلموا دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم في حين بعث الكامل إليهم مقابل ذلك إبنه الصالح نجم الدين أيوب وعمره

---

[1] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص241.

[2] المقريزي: مرجع سابق، ص244.

[3] عبد الحي إبن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ج 5، ص79.

يومئذ خمس عشرة سنة ومعه جماعة من خواصه وتقرر بينهم صلح مدته ثمان سنوات[1].

ويبدو أن الملك الكامل خشي إن رفض تأمين الصليبيين أن يمتنع من بقى بدمياط من الصليبيين أن يسلمها ويحتاج الحال منازلتها مدة فإنها كانت ذات أسوار منيعة وزاد الفرنج عندما إستولوا عليها في تحصينها، كذلك خشي من وصول نجدات من الغرب الأوربي للصليبيين وخاصة من جهة الإمبراطور فريدريك الثاني طلباً لثأر من قتل من أكابرهم هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين وملت من طول الحرب ومواصلة القتال[2].

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط في 7 سبتمبر 1221م وعادت المدينة الأسيرة إلى أصحابها بعد سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً فدخلها الملك الكامل ولم يجد فيها من أهلها إلا آحاداً وقد حصنها الصليبيون إلى غاية ما يكون، بحيث بقيت لاترام ولا يوصل إليها وهنأ الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار الكامل ودخل دمياط ومعه إخوته وأهل بيته ثم توجه إلى القاهرة وأذن للملوك في الرجوع لبلادهم. وأبحر الصليبيون إلى أوربا في حين عاد حنا دي برين ورجاله إلى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمان سنوات (1221–1229م) بشرط أن يطلق كل من الفريقين ما عنده من الرهائن[3].

وما كاد يتم توقيع شروط الصلح وإقرار الهدنة حتى وصلت سفن صقلية نجدة للصليبيين تحت قيادة والتر باليار متولي الديوان بصقلية وهي النجدة التي انتظرها بلاجيوس، وقد وصلت تلك النجدة في وقت لا تستطيع أن تقوم فيه بأي عمل عسكري. حقيقة كان من الممكن أن يكسر قائد هذه القوة الهدنة المعقودة لأن الصليبيين لا يحفظون للعهود حرمة، ولكن وجود الرهائن من ملوك الصليبيين لدى الملك الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك فضلاً عن أن الملك الكامل كان تحت رحمته معظم الجيش الصليبي[4].

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة بعد أن كان متوقعاً لها النجاح وعاد أفرادها إلى بلادهم بعد أن قضوا في دمياط وعلى شاطيئها الغربي والشرقي ثلاث سنوات وأربعة

---

[1] المقريزي: مرجع سابق، ص245.
[2] حامد زقان غانم: مرجع سابق، ص49.
[3] وول ديورانت: قصة الحضارة، تعريب محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1975، ج4، مج4، ص56.
[4] حامد زقان غانم: مرجع سابق، ص49.

أشهر وتسعة عشر يوماً رفضوا خلالها أربعة عروض بإستعادة فلسطين مقابل الجلاء عن مصر فاضطروا أخيراً إلى الجلاء دون مقابل. وكما قال إبن الأثير: (إن الله تعالى أعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها)[1].

وهكذا خرجت فلول الحملة الصليبية الخاصة المنهزمة من دمياط تلعق جراحها، وقد غرقت أطماع قائدها بلاجيوس في أوحال الدلتا، واستقبل السلطان الكامل الشعراء المادحين في مجلسه بمدينة المنصورة.

وما أن استقرت بالكامل قدماه في القاهرة حتى إلتقت إلى أولئك المتآمرين عليه فنفاهم وشردهم، والتف الأيوبيون حول الكامل يجدونه قائدهم المنشود، وإذا بهم يصبحون قوة تبسط نفودها شرقاً وغرباً وإذا في أيديهم بعد مصر الشام ومكة والجزيرة واليمن. ومرت سنتان دون حدوث شئ مهم، ثم عاد النزاع والتخاصم ليحكما الساحة السياسية الأيوبية بعد ذلك[2].

هكذا إنتهت الحملة الصليبية الخامسة بإنتصار أيوبي حاسم وعندما أضطر السلطان الكامل إلى القتال كان النصر حليفه ولكنه لم يتعلم من دروس الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة فقد ظل على سياسة المهادنة والتخاذل وسعى إلى السلام مع الصليبيين لكي يتفرغ إلى الحرب ضد المسلمين من أقاربه الأيوبيين. ولكن أوربا تعلمت الدروس كما تعلمها الصليبيون المستوطنون في فلسطين فقد كانت الروح الصليبية ما تزال حية في أوربا.

ومن ناحية أخرى كانت الحملات في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي موجهة ضد مصر، وهو الدرس العسكري الذي تعلمه الغرب منذ الحملة الصليبية الثالثة في العقد الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، وهكذا جاءت الحملة الخامسة ضد دمياط وانتهت بخروج الصليبيين، ولأن فشل حملة دمياط كان في التحليل الأخير ضربة موجعة لهيبة للبابوية التي كانت في عز صراعها مع الإمبراطورية لتأكيد هيمنتها في

---

[1] إبن الاثير: مصدر سابق، ج11، ص331.
[2] ابراهيم الابياري: مرجع سابق، ص100.

أوربا فقد أخذ البلاط البابوي يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة، فكانت الحملة الصليبية السادسة.

الحملة الصليبية السادسة 1228 – 1229م

لم يحاول الصليبيون أبداً الإستجابة لسياسة المهادنة التي سار عليها الكامل الأيوبي ولم يكن ذلك ممكناً في ضوء فهم حقائق الصراع الإسلامي الصليبي الذي كان لابدّ وأن ينتهي بالقضاء على أحد الطرفين لذلك كانت الحملة الصليبية السادسة 1228 – 1229م في عهد السلطان الكامل وهي الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس وكان قوامها ستمائة فارس فقط ولم ترق فيها قطرة من الدماء والأعجب أنها جاءت إستجابة لرغبة الملك الكامل محمد نفسه وبإتفاق وتفاهم بينه وبين فريدريك الثاني، فحقق بذلك فردريك ما عجزت عن تحقيقه الحملة الصليبية الثالثة وما أعيأ ريتشارد قلب الأسد وجيوشه اللجبة دون أن يخسر رجلاً واحداً رغم أنها جاءت ملعونة من البابا وعلى رأسها إمبراطور محروم من الكنيسة[1].

وكان فريدريك الثاني الذي إشتهر بلقب (أعجوبة الدنيا) صقلياً تَربّى على القيم والثقافة العربية؛ فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات ويجيد ست لغات منها اللغة العربية هذا كله فضلاً عن مهارته كسياسي ومحارب وقانوني وفي شوارع الجزيرة وأزقتها عرف حقائق الحياة ولم يكن الإسلام في نظره مجرد كتاب مغلق كما أن المسلمين في نظره لم يكونوا قوم من الكفار يستحقون الفناء فقد كان فريدريك يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديراً كبيراً، وقد كانت مظاهر الثقافة الإسلامية الراقية تقتحم ناظريه في كل مكان بالجزيرة التي نشأ وترعرع على ترابها. كما كان معروفاً بالتسامح مع المسلمين، وكذلك الكامل هو الآخر عرف بتسامحه الديني وولعه بالتاريخ والفلسفة والعلوم. ولعل هذا التوافق في الميول والطباع والإتجاهات بين الكامل وفريدريك هو الذي جعل الكامل يستنجد بالإمبراطور فردريك الثاني كما جعل الحملة الصليبية السادسة تتسم بمسحة من التسامح المطلق ليس له نظير في أي حملة صليبية أخرى[2].

وحقيقة ذلك أنه لما توفى الملك العادل الأيوبي لم يكن واحداً من أولاده حاضراً وفاته، فكتم أصحابه موته وبعثوا سراً إلى إبنه الملك المعظم الذي تولى على كنوز أبيه وعلى كل ما في قلعة دمشق من الخزائن وبعد ذلك أعلن وفاة أبيه وكتب إلى سائر إخوته

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص696.

[2] نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج2، دار المعارف، ط2، 1986، ص594/593 – نجلاء عزالدين : Nejla Izzeddin: The Arab World_ Bast Bresent and Future , Henry Regnery company , pp43\44 , 1953.

يخبرهم بوفاته. واستقر أبناء العادل في حكم بلاده وفق الوصية التي أقرها العادل نفسه قبل وفاته[1].

وكان لإستحواذ الملك المعظّم على كنوز أبيه دون إخوته أثر كبير في نفوسهم ولكن وجود الصليبيين في دمياط وتهديدهم لكافة ممتلكات الأيوبيين أزال ما في نفوس أبناء العادل من ناحية أخيهم المعظم. وما كادت تنقشع القمة التي نجمت عن وفاة العادل ويتم جلاء الصليبيين عن دمياط حتى بدأت الخلافات بين أبناء العادل في الظهور وبدأ العداء ينشب مخالبه بين الإخوة الأيوبيين وإنفرط عقد الإرتباط نتيجة لأطماع المعظّم عيسى وجشعه وذلك عندما هاجم حماة واستولى على بعض أعمالها مثل المعرة وسلمية. هذا في الوقت الذي كان الملك الأشرف موسى صاحب حلب في زيارة لأخيه الكامل في مصر. وعندما وصلت أطماع الملك المعظّم عيسى إلى الديار المصرية أوائل عام 1223م خشي الملك الأشرف على أملاكه من تطلعات أخيه وحدث في ذلك الكامل فغضب الكامل لذلك وبعث إلى المعظم يأمره بالرحيل عن حماة فأضطر الملك المعظم إلى الرحيل عنها مغضباً حنقاً على أخيه. وهكذا بدأ الخلاف لكي يتحول إلى نوع من العداوة والحرب[2].

ولم يكتف المعظم بذلك بل تحالف مع السلطان جلال الدين إبن خوارزم شاه* ملك الدولة الخوارزمية ووثق علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الملك الكامل، ووعده بأن يخطب له على المنابر بدمشق ويضرب السكة بإسمه فسيّر إليه جلال الدين خلعة لبسها وشقّ بها شوارع دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل فضاق الكامل من إنتماء أخيه المعظّم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه وخاف أن يكون إتفاقهما سبباً لزوال الدولة، فقبض على أمراء ومماليك أبيه لإتصالهم ومكاتبتهم المعظّم عيسى وقبض أيضا على عشرة أمراء من البحرية العادلية واعتقلهم وصادر أموالهم وممتلكاتهم من أجل الإنفاق على العسكر المصري الذي قرر الكامل تسييره إلى دمشق لتأديب أخيه المعظّم عيسى، كما بعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ* إلى ملك الفرنج فردريك يطلب منه القدوم إلى عكا ووعده بأن يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح

---

[1] حامد زقان: مرجع سابق، ص 49-50.

[2] حمدي عبدالمنعم: مرجع سابق، ص114.

* جلال الدين خوارزم شاه محمد بن تكش سلطان الدولة الخوارزمية التي قضى عليها جنكيز خان المغولي وشرّد جنودها فصاروا مناثر حربية تحاول الدخول في طاعة من يريد إستخدامها/ إبن الاثير: الكامل، ج 12، ص425.

* هو فخر الدين يوسف بن عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ/ المقريزي: مرجع سابق، ص318.

صلاح الدين بالساحل. كل ذلك ليضغط على أخيه المعظّم فيضطر إلى موافقته والدخول في طاعته[1].

وهكذا كان العمى السياسي والأنانية ورقة الدين طابع السياسات الأيوبية المتداخلة، فقد كان المعظّم عيسى قد بعث بالفعل إلى جلال الدين خوارزم شاه يطلب منه التحالف معه وكان رد الفعل من جانب الكامل خائباً بقدر ما كان تصرف المعظّم عيسى طائشاً، فقد طلب قدوم الإمبراطور فريدريك الثاني لكي يكون مصدر قلق لأخيه. وهكذا أصبح الصرح الذي شيّده صلاح الدين الأيوبي مهدداً بالضياع بسبب الإنقسام بين أفراد الأسرة الأيوبية وإستعانة كل فريق من الفريقين المتنازعين بقوى خارجية[2].

ويبدو أن أخبار حملة فريدريك الصليبية المنتظرة وصلت إلى أسماع الملك الكامل محمد الذي أدرك أن الإمبراطور بهذه الحملة سيدخل في عداء مع الملك المعظّم صاحب دمشق وبيت المقدس، لذلك رأي الكامل الإتفاق مع فردريك الثاني على تسليمه مملكة بيت المقدس وبذلك يتفادى وقوع حرب صليبية جديدة خاصة وأن احداث حملة حنا دي برين بكل ما قاسى فيها الكامل من مشاق لا تزال ماثلة في ذهنه وأنه لم يتغلب عليها إلا بمساعدة إخوته، أما الآن فإن البيت الأيوبي أصبح منقسماً على نفسه مهدداً بأطماع جلال الخوارزمي.

إستقبل الإمبراطور فردريك الثاني رسول الملك الكامل أحسن إستقبال وأخبره بعرض الكامل، وبالطبع رحبّ فردريك بهذا العرض منتهزاً فرصة الخلافات بين الكامل وإخوته كي يحصل على بيت المقدس بدون حرب خاصة وأن البابوية كانت في ذلك الوقت تلح عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق لإستعادة بيت المقدس، لذلك ردّ الإمبراطور على سفارة الملك الكامل محمد بسفارة مماثلة تحمل هدايا وتحف إلى الكامل محمد، وقوبل رسول الإمبراطور بالترحاب والتشريف من الإسكندرية وحتى القاهرة حيث إستقبله السلطان بنفسه وأكرمه إكراماً زائداً وأنزله في دار الوزير صفي الدين إبن شكر، كما جهز السلطان هدية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم ما قيمته أضعاف ما سيّره الإمبراطور، وأوفد معها جمال الدين بن منقذ الشيزري[3].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص259-260.
[2] محمد مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص60-63.
[3] إبن الاثير: مصدر سابق، ص315.

وعندما كان رسول الإمبراطور راجعاً إلى الغرب أراد التحقق من موقف المعظّم عيسى صاحب دمشق من تسليم بيت المقدس فمرّ بدمشق وطلب من المعظّم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ولكن المعظّم أغلظ له فقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير وماله عندي سوى السيف[1].

ثم قصد بيت المقدس فخرّب قلاعاً وعدة صهاريج بالقدس خشية إستيلاء الصليبيين عليها، وفي نفس الوقت كتب المعظّم إلى حليفه جلال الدين الخوارزمي يسأله النجدة، غير أن المعظّم لم يلبث أن توفي بدمشق في نهاية عام 1227م. وتولى إبنه الناصر داؤود الذي رفض طلب عمه الكامل بأن يترك له قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له فوقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل فعزم الكامل على قصده وأخذ دمشق منه[2].

خرج الملك الكامل محمد من مصر في عساكره الضخمة وفي صحبته إبن أخيه الملك المظفّر تقي الدين محمود وقد وعده أن يسلمه حماة وكانت بيد أخيه الملك الناصر قلج أرسلان وكان ذلك في 1227م، ولما وصل الكامل محمد إلى غزة نزل فيها مخيماً بتل العجول وبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وغيرها[3].

ولما تيقن الملك الناصر داؤود من قصد عمه الملك الكامل له أرسل إلى عمه الأشرف من البلاد الشرقية يسأله النجدة على الكامل. وبالفعل حضر الأشرف إلى دمشق في 1227م حيث رحب به الناصر ترحيباً حاراً وحكمه في بلاده وأمواله فأعجب الأشرف بدمشق وعمل في الباطن على إنتزاعها لنفسه من الناصر.

وسرعان ما تحقق أمل الأشرف بعد ما اتفق مع الكامل على إنتزاع دمشق من الناصر وأن تكون للأشرف دمشق وما معها من الأعمال إلى عقبة فيق، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون وهو الفتح الصلاحي ويكون للناصر عوضاً عن دمشق حران والرقة والرها وسروج ورأس عين* وهو ما كان مع الأشرف وتمّ الإتفاق على ذلك في أوائل 1228م بتل العجول[4].

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1000.

[2] المقريزي: مصدر سابق، ص261.

[3] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص116.

* مدينة مشهورة قرب حران وبها عيون كثيرة صافية تجتمع كلها في موضع فيصير نهر الخابور، ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج4، ص380.

[4] حامد زقان: مرجع سابق، ص56.

وفي الوقت الذي إنشغل فيه الملك الكامل محمد بترتيب أوضاع البيت الأيوبي في مصر والشام وصل الإمبراطور فردريك الثاني إلى عكا على رأس قوة صغيرة وكان قد سبقه جموع أخرى من الفرنج ولكنهم لم يتمكنوا من الحركة والشروع في أمر الحرب لإنتظارهم الإمبراطور الذي وصل إلى عكا في أواخر سنة 1228م بعد أن مرّ بجزيرة قبرص لتوطيد نفوذه فيها، فجاء وصولهم مخيباً لآمال الصليبيين والملك الكامل جميعاً[1].

ويبدو أن الملك الكامل لم يعد في حاجة إلى مساعدة فردريك الثاني عند وصوله إلى الشرق لأن الملك المعظّم صاحب دمشق توفي في 12 نوفمبر1227م، وخلفه إبنه الناصر داؤود وهو شاب صغير ليس له من الخبرة أو القوة ما يجعله مصدر خطر على الكامل وغيره. فتحيّر الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه تجاه الإمبراطور لأنه هو الذي دعاه إلى الشام وألح عليه في المجئ إليها ليناصره على خصمه، فلما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته، ثم أن الأملاك التي وعده بها غدت جزءاً من مملكته ومن واجبه أن يدافع عنها[2].

وهكذا نجد أن وفاة الملك المعظّم أحدثت أثر كبير على تطور الموقف على كل من الملك الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثاني الذي لم يكن موقفه أقل حساسية وحرجاً من الكامل لأنه خرج من بلاده معتمداً على الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل مقابل ما يقدمه له من مساعدات ضد أخيه الملك المعظّم صاحب دمشق، وهاهو قد وجد أن الأمر قد تغيّر بوفاة المعظّم وأن الكامل والأشرف قد إتفقا على إقتسام بلاده، بل أن الكامل خرج فعلاً من مصر على رأس جيشه واحتل بيت المقدس ونابلس في صيف سنة 1228م[3].

وكان الملك الناصر داؤود لما سمع بتحرك عمه الكامل خاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجد به ضد عمه الكامل فسار إليه ودخل دمشق في أغسطس 1228م، متظاهراً بحماية إبن أخيه، ومن هناك أرسل رسالة إلى الكامل يستعطفه ويعرفّه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والإتفاق معه على منع الصليبيين عن البلاد. وردّ الكامل الجواب بقوله: أنه أيضاً ما حضر إلى

---

[1] سعيد عاشور: اوربا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، مكتبة الانجلو المصرية، 1964، ج 1، ص405.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص266.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص263.

الشام إلا لدفع الفرنج الذين عمروا صيدا وجزء من قيسارية، وأنت تعلم أن عمنا صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل فإن أخذه الفرنجه فأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى[1].

ثم انسحب الكامل بعد ذلك إلى تل العجول فخاف الأشرف وجميع أهل الشام وخشوا أن يستولي الصليبيون على بيت المقدس وغيره مما يجاوره إن عاد الكامل إلى مصر، فترددت الرسل ولحق الأشرف بأخيه الكامل في تل العجول وهناك إتفقا على إقتسام ملك المعظّم وحاصرا الناصر داؤود في دمشق ثلاثة أشهر حتى اقتحماها في يوليو 1229م[2].

وبعد هذا فإن الوضع قد إستقر بين أبناء البيت الأيوبي بالشام ولم تعد هناك حاجة في مساعدة فردريك الثاني فأصبح الكامل في حيرة من أمره وكذلك فردريك الثاني خرج من بلاده محروماً من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية معتمداً على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس لإستعادة نفوذه في الغرب وإذا عاد إلى أوربا دون أن يحقق أي إنتصار فإنه سيعطي خصومه سلاحاً قوياً للسخرية منه والتشهير به فالمسألة بالنسبة له إذن كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ومصير المعركة بينه وبين البابوية، لأن نجاحه في إسترداد بيت المقدس سيكون قبل كل شئ إنتصاراً على البابوية، ومصداق ذلك ما قاله للمسلمين في الشرق من أنه (ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج)[3].

ويبدو أن فردريك الثاني أحسّ بتحيّر الكامل فأرسل إليه رسالة قال فيها: (الملك يقول لك كان الجيّد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شئ ولا أجئ إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي في زمن حصار دمياط الساحل كله وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلنا وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم ومن نائبي؟. إن هو إلا أقل غلماني فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له). وفي نفس الوقت شرع الإمبراطور في تعمير صيدا وإعادة بناء سورها وإستحكاماتها إظهاراً منه لنيّة الحرب إذا حنث الكامل في

---

[1] بن الاثير: مصدر سابق، ج11، ص480.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص265.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص266.

وعوده ولكن الكامل لم يمكنه دفعه أو محاربته لما تقدم بينهما من الإتفاق فأرسل إليه سفارة على رأسها فخر الدين بن شيخ الشيوخ ولاطفه[1].

هكذا وصل الإمبراطور إلى المنطقة العربية، وبدأت مساومته مع السلطان الكامل الذي كبلته حيرته وتردده، وانتهت سنة 1228م دون أن يتم حسم الأمر بين الطرفين بيد أن الحرب لم تكن واردة بين الطرفين بسبب تردي موقف السطان الحائر، وقد كان وصوله في وقت المداولات بين الكامل والأشرف حول الإتفاق على إعادة تقسيم مملكة أبيهم وانتزاع دمشق من يد الناصر، لذلك خشي الكامل من إنقلاب الإمور فاستنجد الناصر داؤود بالإمبراطور ضده وضد الأشرف من أجل إستعادة دمشق، فلم يكن من الكامل إلا أن راسل الإمبراطور ولاطفه واستمرت الرسل تتردد بينهما[2].

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثاني سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضة والإستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والحصول على بيت المقدس.

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص118.

[2] سعيد عاشور: أروبا العصور الوسطى، ص405.

صلح يافا 626هـ/1229م

تغيرت الأحداث في الشرق كثيراً عندما وصل الإمبراطور فريدريك الثاني إلى عكا في أواخر عام 1228م فقد توفي خصم الكامل محمد، وأصبح الكامل هو المهمين على أملاك البيت الأيوبي لذا تنكر لوعوده للإمبراطور وأعلنها في صراحة أنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمناً لمساعدته التي يقدمها له. كما أن الكامل كان على علم تام بضعف جيش فردريك الثاني وبعدائه الشديد للبابوية وضعف شوكته في الغرب وأن صليبيي الشام لن يذعنوا إلى الإمبراطور ولن يقبلوا القتال تحت قيادته وهو المحروم من الكنيسة. كذلك فإن الكامل خشي الإستمرار في المفاوضات مع الإمبراطور بشأن تسليمه بيت المقدس حتى لا تثور ثائرة المسلمين عليه، وبالإضافة إلى كل هذه الأسباب فإن ما قام به رجال فردريك الثاني من نهب بعض القرى الإسلامية عجّل بقطع المفاوضات بين الطرفين[1].

كل هذه الأسباب أدت إلى سوء موقف فردريك الثاني في الشرق وأدرك حينئذ أن مهمته أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفشل، في حين أن قواته كانت على درجة من الضعف بحيث لا يستطيع أن يغامر بها في معركة ضد الكامل، وعندما أحس أنه سيعود إلى الغرب دون تحقيق النصر والإستيلاء على بيت المقدس وما سيلحقه من البابوية من مهانة وهي التي استغلت فرصة بقاءه في المشرق واعتدت على أملاكه في الغرب كل هذا دفع الإمبراطور إلى إستعطاف الملك الكامل من أجل الحصول على بيت المقدس حتى أنه كان يبكي في بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود فاشلاً ليواجه البابوية وبقية أعدائه في إيطاليا وألمانيا[2].

ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثاني إلى السلطان الكامل الأيوبي جاء فيها:(أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر وقد علم البابا والملوك بإهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائباً إنكسرت حرمتي بينهم وهذه القدس فهي أهل إعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد خرّبوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم عليّ بفيضه والزيارة فيكون صدقة منه ويرتفع رأسي بين ملوك البحر)[3].

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1007.
[2] سعيد عاشور: اوربا العصور الوسطى، ص405.
[3] عبد الحي بن العماد الحنبلي: مصدر سابق، ص118.

مازالت المفاوضات جارية بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني ولم يكن أي منهما في وضع يسمح له باللجوء إلى الحرب؛ فقد كان الكامل كارهاً للحرب طوال ولايته إلا إذا كانت بين أقاربه وإخوته، ولم يكن في وضع سياسي أوعسكري يسمح له باللجوء إلى الحرب، كما أن فردريك لم يكن في وضع يسمح له بأن يسعى إلى إحراز إنتصار عسكري كما أنه في علاقته مع السلطان كان ملتزماً بالعمل الدبلوماسي بدلاً من الحل العسكري. وكان على علم تام بكافة التفاصيل عن التطورات الجارية في بلاد الشام بفضل علاقته مع الكامل منذ سنة 1226م[1].

ولم تلبث الإستعطافات أن آتت أكلها وأفلحت في التأثير على الكامل الذي أحس بموقف فردريك هذا بالإضافة إلى ما قام به فردريك الثاني من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى إتفاق الإمبراطور وبقية الجموع الصليبية للقيام بعمل حربي ضده، وهو الشعور الذي فسره المقريزي بقوله أن الكامل: (خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته) لذلك أعاد المفاوضات من جديد واشترك فيها إلى جانب فخر الدين بن شيخ الشيوخ صلاح الدين الأريلي والشريف شمس الدين الأموي قاضي العسكر وهو في تل العجول، والتي إنتهت بتوقيع معاهدة يافا في فبراير 1229م، بين الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثاني على أن يأخذ الإمبراطور القدس بشرط أن تظل على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج وأن الحرم بما حوله من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوم من المسلمين وتقوم فيه شعائر الإسلام من الآذان والصلاة وأن تكون القرى التي فيما بين عكا وبين يافا وبين اللد وبيت المقدس بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس وأن يكون أمد هذه المعاهدة عشر سنوات وأن يطلق كل من الجانبين أسراهم[2].

ويبدو أن الكامل خشى أن يفقد ما بينه وبين الإمبراطور من علاقات طيبة وما سيتبع هذا من دخوله في حرب مع الصليبيين فيقع بين ثلاثة أعداء الصليبيون من جهة والخوازرمية وسلطانهم جلال الدين من جهة أخرى والملك الناصر داؤود من ناحية ثالثة, وعلى هذا النحو إستطاع فردريك الثاني أن يكسب عطف السلطان الكامل وأن

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص 118.

[2] أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس، 1984م، ص237.

يحقق نصراً عجزت عنه بقية الحملات الصليبية التي وفدت إلى المشرق بعد إستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة 1187م ألا وهو الحصول على بيت المقدس دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً[1].

اعتبرت هذه الحملة وصمة عار في جبين المسيحيين الغربيين حتى أن بعض المؤرخين لا يدخلونها في عداد الحركة الصليبية ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن الظروف السياسية في الشرق الإسلامي وقتذاك كانت عاملاً هاماً في إتمام هذه الصفقة وذلك أن نزاع الكامل مع أفراد أسرته في الشام هو الذي دفعه إلى إستدعاء صديقه فردريك الثاني والتنازل له عن بيت المقدس حتى يضمن إنضمامه إليه ضدهم. ولاشك أن السلطان كان قد إمتنع عن تسليمها للإمبراطور لما أمكنه الإستيلاء عليها عنوة خاصة وأنه لم يكن مزوداً بالعدد الكافي لفرض حصار قوي حولها[2].

وهكذا حقق الإمبراطور الذي إستحق لقب (اعجوبة الدنيا) عن جدارة ما لم تستطع الحملات الكبرى تحقيقه، ولم يلبث أن أرسل الكامل فنودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الصليبيين، ولكن تسليم بيت المقدس بهذه السهولة وهي المدينة التي إستردها صلاح الدين الأيوبي بعد جهاد متواصل توّجه بإنتصار حطين سنة 1187م أثار موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه، واشتد بكاءهم وعظم صراخهم وعويلهم وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم السلطان الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم في مدن الشام وخاصة دمشق[3].

ويبدو أن الكامل أحس أنه تورط مع الفرنج على حد قول المقريزي فحاول أن يهوّن من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين ويبرر مسلكه في تلك الإتفاقية فقال: (إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم ووالي الإسلام متحكم في الأعمال والضياع) إلا أن الرأي العام الإسلامي لم يجد لإتفاقية الكامل مبرراً ولم يستطع تفسيراً، لكن التوافق بين كامل وفردريك الثاني في الطباع والتسامح ساهم

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1011.

[2] جوزيف نسيم: لويس التاسع في الشرق الأوسط، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ط2، 195م، ص351-352.

[3] ابن الاثير: مصدر سابق، ج11، ص483.

في التوقيع على هذه الإتفاقية، وقد أحس الإمبراطور نفسه بما سببته الإتفاقية من حرج للسلطان الكامل فأعتذر للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف إنكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك[1].

لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين أظهروا إستياءهم من إتفاقية يافا 1229م بل قابل الصليبيون أيضاً تلك الإتفاقية بالغضب والإستياء وعبروا عن ذلك بصور شتى، ولم يعترف أحد منهم بفضل الإمبراطور فردريك الثاني وتنكرت جميع طوائف المسيحيين له وبخسوه العمل الكبير الذي أدّاه لهم والذي كان الغرب الأوربي يسعى إلى تحقيقه منذ زمن طويل وهو السيادة الصليبية على القدس وهو ما عجزت كل الجهود العسكرية عن تحقيقه منذ معركة حطين سنة 1187م وما أعقبها من تحرير القدس على أيدي قوات صلاح الدين الأيوبي[2].

وبعد توقيع الهدنة بعث الإمبراطور فردريك الثاني يستأذن الكامل في دخول بيت المقدس فأجابه الكامل إلى طلبه وسيّر معه القاضي شمس الدين قاضي نابلس ليكون في خدمته فسار معه إلى المسجد الأقصى وطاف معه ما فيه من المزارات. كما فكر في زيارة المسجد الأقصى وهناك علم أن السلطان الكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين بعدم إقامة الآذان طيلة وجود الإمبراطور في المدينة إعظاماً للملك واحتراماً له. فاستاء فردريك لذلك وقال للقاضي شمس الدين: (أخطأت فيما فعلت والله أنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل) ثم أنه رأى قسيساً وبيده الإنجيل وقد قصد دخول المسجد فصاح به الإمبراطور وزجره وأنكر مجيئه وقال: (إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده وإنما تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه فلا يتعدى أحد منكم طوره)[3].

وهكذا أخذ فردريك الثاني يقوم بأعمال وتصرفات أثارت دهشة المسلمين والمسيحيين سواء، ولم يلبث بعد أن أقام يوماً واحداً ببيت المقدس أن غادرها إلى عكا ومنها إلى بلاده في يونيو سنة1229م، بعد أن وصلته أخبار عن إيطاليا إضطرته للعودة إلى

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص269.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص119.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص269-270.

بلاده، وعلى ذلك الوجه إنتهت تلك الحملة الصليبية التي إتصفت بالغرابة من بدايتها إلى نهايتها[1].

ورغم أن المسلمين قد أظهروا أسفهم العميق على ضياع بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين نتيجة لتخاذل الكامل وخوفه وأنانيته السياسية؛ فإنهم لم يحاولوا في تلك الفترة إسترداد تلك المدينة رغم بقاءها غير محصنة مهدمة الأسوار ورغم عدم وجود ملك قوي أو جيش كبير للصليبيين فيها. وهذا خير دليل على ضعف الأيوبيين وانحلال إمورهم في الربع الثاني من القرن الثالث عشر وجمودهم أمام الصليبيين بالشام وعدم محاولتهم إستغلال الظروف السيئة التي بات فيها الصليبيون بعد أن عاد فردريك الثاني إلى الغرب[2].

وربما كان السبب في حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي الذي نجح في الإستيلاء على أخلاط في ابريل 1230م بعد حصار ستة أشهر ودخل المدينة ووضع السيف في الناس وأسرف في القتل والنهب، فأفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين في البلدان المجاورة وتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على الخطر، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد* الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمي وأنزلوا هزيمة ساحقة بالخوارزمية قرب أذربيجان في أغسطس 1230م واسترد الأشرف خلاط وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين الذي لم يلبث أن قُتل سنة 1231م وتمزقت دولته شر ممزق وهامت جموع الخوارزمية في بلدان الشرق الأدني تعرض خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين[3].

ومع ذلك فإن الأيوبيين بالشام كانوا لا يأمنون على أنفسهم وبلادهم لأن الخطر لم يكن خطر الخوارزمية فقط فقد كان من وراء هؤلاء الخوارزمية حجافل المغول الذين إستأنفوا حركتهم التوسعية وفتحوا بلاد فارس سنة 1231م، واستولوا على ما كان بيد الخوارزمية من بلاد، ولم يبق أمامهم سوى وضع أيديهم على العراق وتهديد أملاك الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وكان من المفروض أن يحاول الأيوبيون

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1015.

[2] المرجع نفسه: ص1027.

* هو علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان ملك بلاد الروم وهو صاحب قونيا وملطية وغيرها من بلاد الروم/ بن الاثير: ج 12، ص458.

[3] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص273.

التحالف مع السلاجقة ضد خطر المغول ولكن علاء الدين كقيباد الأول سلطان قونية أراد أن يستقل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين الخوارزمي لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران لذلك نهض الكامل لدفع خطر سلطان قونيه فجمع حوله جميع القوى الأيوبية وزحف على الأناضول سنة 1234م فحدث العداء بين سلاجقة الروم والأيوبيين[1].

ومرت السنوات وواصل بنو أيوب حروبهم ضد بعضهم البعض، إذ تحالف الكامل والأشرف ضد الناصر داؤود وحاصرا دمشق وقطعا المياه عنها وصمد الناصر داؤود والدمشقيون زمناً طويلاً ثم اضطر إلى تسليم نفسه إلى عمه[2].

ولم يقف الأمر في العالم الإسلامي على ذلك بل أن البيت الأيوبي لم يلبث أن إنقسم على نفسه وتآمر الأيوبيون على الكامل فأسرع بالحضور من مصر وقضى على الحركة وحاصر دمشق وقطع عنها المياه في أواخر سنة 1237م حتى إستسلمت له المدينة ورغم ذلك كان أهل دمشق يخرجون كل يوم ويقاتلون أشد القتال وطالت فترة الحصار فاشتد ذلك على أهل دمشق لإقبال الصيف وغلاء الأسعار فاستسلمت المدينة، وأقصى صاحبها أخيه الملك الصالح عن دمشق. وهكذا إنتهى الأمر بعزله وإعطائه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع وبصرة[3].

ثم خرج السلطان بجيشه من دمشق دون أن يخوض أي معارك ثم نشبت الخلافات الأيوبية . الأيوبية من جديد وتحالف ملوك الأيوبيين بالشام ضد الكامل وعادت الحرب تطل بوجهها المرعب في المنطقة من جديد وسافر السلطان إلى الشام ثم ما لبث الكامل نفسه أن توفى في أوائل مارس 1238م عن عمر يناهز الستين عاماً مخلفاً لإبنه الملك العادل الثاني السلطة العليا في مملكة الأيوبيين، وقد حكم مصر ما يقرب من أربعين سنة منها حوالي عشرون سنة نائباً عن أبيه[4].

وقد قضى الكامل حياته في الكر والفر حتى وقع مريضاً وكان ينشد في مرضه كثيرا:

يا خليليّ خبراني بصدق كيف طعم الكرى فإني نسيته[5]

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1028.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص121.
[3] أبو الفداء: مصدر سابق، ج3، ص161.
[4] قدري قلعجي: مرجع سابق، ص514.
[5] إبن خلكان: مصدر سابق، ج5، ص83.

وعلى هذا نجد أن الصراع الأيوبي الصليبي كان له أثر كبير في إنهيار الدولة الأيوبية، فنجاح الحملة الصليبية الخامسة في الإستيلاء على دمياط قضى على الأهمية الإقتصادية في تجارة مصر كما قضى على الناحية المادية فاستولى الصليبيون على قدر كبير من المؤن والعتاد كما أن سياسة التخاذل والخوف التي سار عليها الكامل قد آتت ثمارها المُرة في معاهدة يافا فقد سلم الكامل الأيوبي دون قتال كل ما فتحه المسلمون أيام صلاح الدين الأيوبي بعد حرب إسترداد طويلة بدأت قبل أيام عماد الدين زنكي وانهار جهد عشرات السنين وهدرت دماء آلاف الشهداء الذين خاضوا القتال ضد الصليبيين المعتدين الذين جاءوا من بلادهم ليقيموا على الأرض العربية ظلماً وعدواناً.

ويبدو أن خلفاء صلاح الدين كان إهتمامهم الأول بكرسي العرش وقتال بعضهم بعضاً للوصول إلى السلطة والنفوذ ولو إهتم الأيوبيون بدولتهم وحاولوا على إبقائها دولة قوية متماسكة بوحدتهم ما نال منهم الصليبيون ما نالوا؛ ولكن نزاعهم فيما بينهم كان كالسوس الذي ينخر في كيان دولتهم فأدى إلى إنهيار مقاومتهم أمام الصليبيين في كثير من المواقف.

الفصل الرابع

الصالح نجم الدين ايوب والصليبيين
637-647هـ/1240 – 1249م

- ✓ التطـــورات السياســـية فـــي الدولـــة الأيوبيـــة منـــذ وفـــاة الكامـــل محمـــد وحتى ولاية الصالح نجم الدين.
- ✓ الصـــراع الأيـــوبي الصـــليبي 1239 – 1249م وأثـــره علـــى الدولـــة الأيوبية :
  - أ- الحملة الفرنسية سنة 1239م .
  - ب- الحملة الإنجليزية 1240 – 1241م .
  - ج- الحملـــة الصـــليبية الســـابعة علـــى مصـــر 1249م وأثرهـــا علـــى الدولة الأيوبية .

الصالح نجم الدين ايوب والصليبيين

بعد وفاة السلطان الكامل محمد سنة 1238م تعرضت الدولة الأيوبية في مصر والشام لخطر الإنقسام والفوضى فاستولى الصالح نجم الدين أيوب على دمشق سنة 1239م وكان هذا إيذاناً بدخوله في صراع مع أخيه السلطان العادل الصغير بن الكامل الذي خلف أباه على حكم مصر والشام واستعان كل منهما بأنصار من البيت الأيوبي للوقوف في وجه الآخر.

وفي غمرة هذا الصراع قفز عمهما الصالح إسماعيل على دمشق واستولى عليها وطرد الصالح أيوب منها في نهاية سنة 1239م الذي شاء له القدر أن يقع في قبضة الناصر داؤود صاحب الأردن والكرك، ثم لم يلبث أن أفرج عنه واتفقا معاً على القيام بحملة عسكرية على مصر والإستيلاء عليها من قبضة العادل الصغير.

وكانت الظروف مهيأة تماماً لنجاح حملة الصالح أيوب فكبار أمراء العادل مستاءون منه لإحتجابه عنهم لذلك إستدعوا أخاه الصالح أيوب لتولي مقاليد البلاد فدخل القاهرة في 17 يوليو 1238م وجلس على عرشها واستأثر بها دون الناصر داؤود. ولكن هذا الموقف لم يرض إسماعيل صاحب دمشق فسارع إلى التحالف مع الصليبيين ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داوؤد في الأردن وكان ثمن هذا التحالف غالياً تعهد فيه بأن يعيد بيت المقدس إلى الصليبيين ورجوع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قديماً قبل صلاح الدين.

ولكي يقري الصالح إسماعيل جموع الصليبيين على الإستمرار في التحالف وعدهم بأن يعطيهم جزءاً من مصر إن ملكها؛ فانطلقوا إلى غزة عازمين على غزو مصر والتقوا بالجيش المصري وحلت الهزيمة بالصليبيين فاضطروا إلى عقد الصلح مع سلطان مصر.

ثم لم يلبث أن نشب النزاع مرة أخرى بين الصالحين إسماعيل ونجم الدين أيوب، واستعان الصالح إسماعيل بالصليبيين ولم يجد الصالح أيوب قوة تقف إلى جواره غير الخوارزمية الذين دخلوا مدينة بيت المقدس في يوليو 1244م واستولوا عليها دون مقاومة. وكانت هذه آخر مرة يسترد فيها المسلمون بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية وظلت بأيدي المسلمين حتى سقطت في قبضة اليهود في عصرنا الحديث

وهي تنتظر من يفك أسرها ويعيدها إلى حظيرة المسلمين وندعوا الله ألا يطول الإنتظار ويعين من يعمل على عودتها.

أثار إسترداد المسلمين لبيت القدس حفيظة الغرب الأوربي وارتفعت الأصوات هناك تدعو إلى ضرورة إرسال حملة صليبية جديدة إلى مصر فكانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع.

التطورات السياسية في الدولة الأيوبية

منذ وفاة الكامل محمد وحتى ولاية الصالح نجم الدين

جاءت وفاة السلطان الكامل في 1238م نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها حيث إنفرط عقد الدولة الأيوبية على نطاق أوسع من ذي قبل، فقد كان الملك الناصر داؤود يطمع في إسترداد دمشق وبدأت كل فرقة عسكرية ترشح من تراه لولاية من ولايات الدولة ولكن الجزء الأكبر من الجيش الكاملي عاد إلى القاهرة حيث تمت تولية السلطان العادل بن الكامل عرش البلاد بصفته ولي العهد بعد عزل الصالح نجم الدين أيوب واضطربت الإمور إضطراباً شديداً في عهد العادل الثاني[1].

والعادل الثاني أو الصغير هو السلطان الملك العادل أبو بكر بن السلطان الملك الكامل محمد وسبب تقدمه على أخيه الأكبر نجم الدين أبو بكر أنه لمّا مات أبوه الملك الكامل بقلعة دمشق كان إبنه الملك الصالح نجم الدين هو الأكبر نائب إبنه الملك الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان العادل أبو بكر وهو الأصغر نائب أبيه على ديار مصر فلما مات الكامل إجتمع الأمراء سيف الدين على بن قلج عزالدين أيبك والأمير ركن الدين الهجاوي والأمير فخرالدين بن شيخ الشيوخ وأخوه الأمير عماد الدين عمر وأرباب الدولة بدمشق واتفقوا على تحليف الجند للملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل ليخلف أباه بقلعة الجبل وفي سلطنة مصر والشام وأن يكون الملك الجواد مظفرالدين يونس بن مودود بن العادل الأيوبي نائباً عنه بدمشق ويكون أخوه الملك الصالح نجم الدين على ممالك الشرق على حاله، فتم ذلك وحلف له جميع العسكر وأصبح العادل سلطاناً وتمّ أمره ونعت بالعادل سيف على لقب جده[2].

كان الناصر داؤود بن المعظّم عيسى يطمع في أن يتولى حكم دمشق بدلاً من الجواد وقد لعب عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ دوراً هاماً في إقرار الجواد على حكم دمشق وإبعاد الناصر داوؤد عنها، وذلك لما كان بين كل من عماد الدين عمر والناصر داؤود من عداء وكراهية[3].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص302.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص303.
[3] ابوالفداء: مصدر سابق، ج3، ص161.

تقدم الأمراء إلى الملك الناصر داؤود بالرحيل عن دمشق وهددوه إن أقام، فرحل إلى الكرك حتى لا يسبب أي متاعب للملك الجواد كما مكث عماد الدين عمر بعض الوقت بدمشق ومعه قوة كبيرة من الجند لحفظ الإمور بها، وفي نفس الوقت بذل الملك الجواد الأموال للجند والأمراء بدمشق لإجتذاب قلوبهم إليه ورغم هذا لم تلبث الإمور أن إضطربت بمصر وبلاد الشام بسبب نوايا الناصر داوؤد وحقده على كل من عماد الدين عمر والملك العادل الصغير سلطان الديار المصرية، ذلك أن الناصر داؤود بعد أن فشل في الوصول إلى حكم دمشق فكر في حكم الديار المصرية نفسها منتهزاً فرصة إضطراب الإمور بمصر وخروج بعض الأمراء الأكابر عن طاعة العادل الصغير بسبب تقريبه الشباب ومنحهم الأموال والإقطاعات والأخذ بآرائهم واستبعاد الأمراء الأكابر وكذلك لكثرة تحجبه عن الناس وانشغاله باللهو دون النظر في مصالح الدولة فانتهز الناصر داؤود هذه الفرصة وعزم على السير إلى مصر ووطدّ العزم على أخذها عن طريق الحيلة[1].

غادر الناصر داؤود الكرك متجهاً صوب مصر وحمل معه مجموعة كبيرة من التحف والهدايا والجواري لإجتذاب العادل الصغير إليه وعندما وصل إلى مصر أظهر للعادل الإخلاص وصار لا يفارقه ثم أخذ في إستمالة أمراء الديار المصرية إلى جانبه وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العدال إلى جهته وحتى يكتمل مخططه كان لابدّ له من التخلص من عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بدمشق والذي كان نافذ الكلمة في السلطنة الأيوبية، لذلك أوهم الملك العادل الصغير بأن الملك الجواد نائب دمشق يطمع في الإنقضاض على السلطنة والإطاحة بحكم العادل بمساعدة وتشجيع الأمير عماد الدين عمر الذي كان السبب في تولية الجواد حكم دمشق[2].

ويبدو أن العادل الصغير كان مستعداً لتصديق مثل هذه الإتهامات خاصة بعد أن علا شأن الجواد واستولى على زمام الإمور ببلاد الشام واستمال معظم الأمراء إليه وأنزل الهزيمة بجيش الناصر داؤود مما دفع العادل الصغير إلى الخوف فعلاً من نوايا الجواد كما بدأ يرتاب في نوايا الأمير عماد الدين عمر. وعلى هذا النحو نجح الناصر داؤود في الإيقاع بين الملك العادل الصغير وبين عماد الدين عمر الذي كان مقيماً بدمشق[3].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص268.
[2] حامد زقان: مرجع سابق، ص68.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص276.

وعندما وصلت هذه الأخبار السيئة إلى مسامع عماد الدين عمر خشي من إتساع الفجوة بينه وبين العادل الصغير فآثر الحضور إلى مصر واجتمع بالملك العادل الصغير وحتى يزيل عنه الشكوك إلتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر[1].

وكان الملك العادل بعد أن تحقق من إستقلال إبن عمه الملك الجواد بحكم دمشق وخروجه عليه أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة وهم فخر الدين وعماد ومعين الدين وكمال الدين وقال لهم: (أنتم ضيعتم عليّ ملك دمشق، فإن أبي الملك الكامل فتحها وتوفى وهو مالكها، فسلمتم دمشق وخزائن أبي إلى الملك الجواد فتغلب على دمشق وضيع الخزائن، وما أعرف عودة دمشق إلى وانتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم. فتعهد عماد الدين عمر بإرجاعها للملك العادل)[2].

ولم يلبث عماد الدين عمر أن تجهز للسفر إلى دمشق حيث التقى بالجواد وعرض عليه الأمر، غير أن المهمة السياسية التي تعهد بإنجازها عماد الدين عمر لم تكن بالأمر السهل فلم يكن من اليسير على الجواد أن يترك دمشق بهذه السهولة ويسير إلى مصر ليقع أسيراً في قبضة إبن عمه الملك العادل الصغير لذلك رفض رفضاً قاطعاً ماعرضه عليه عماد الدين عمر. وهنا أعلن عماد الدين عزل الجواد عن نيابة دمشق وسجنه بقلعتها[3].

آثر الجواد عدم الدخول في صراع ضد العادل الصغير وعماد الدين لأنه لم يكن لديه القوة الكافية لذلك الصراع وهو في نفس الوقت لا يريد أن يفقد ما وصل إليه من مُلك لذلك رأي أن يعقد إتفاقاً مع الأخ الأكبر للعادل وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان يحقد على العادل لتوليه دونه حكم مصر لكونه هو الأكبر، فقصد الشام بعد إمور وقعت له مع الخوارزمية ومع لؤلؤ صاحب الموصل، ثم سار الملك الصالح بعساكر الشرق حتى وافى دمشق ودخلها فخرج إليه الملك الجواد والتقاه وتمّ الإتفاق بين الجواد والملك الصالح نجم الدين على أن يتنازل الجواد للصالح نجم الدين عن دمشق على أن يأخذ الجواد عوضاً عنها سنجار وكيفا والرقة. وبهذه الصفقة السياسية الغريبة تسلم الصالح نجم الدين أيوب دمشق، وحتى لا يفسد عماد الدين الإتفاق المبرم بين الجواد وبين الصالح نجم الدين فكر الجواد في التخلص من عماد الدين عمر بدمشق

---

[1] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص305.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص313.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص276.

ورتّب جماعة من الإسماعيلية للفتك به، وبالفعل في سنة 1238م تم إغتيال عماد الدين عمر إبن شيخ الشيوخ وأشيع أن الإسماعيلية* أخطأوا في قتله وإنما كانوا يريدون قتل الجواد نفسه فإنه كان كثير الشبه به، وبلغ ذلك العادل فشقّ عليه[1].

ثم خرج الصالح نجم الدين من دمشق قاصداً مصر فكاتب عمه صاحب بعلبك الصالح إسماعيل بن العادل ثم سار إلى نابلس فاستولى عليها وعلى بلاد الناصر داؤود، فتوجه الناصر إلى مصر داخلاً في طاعة الملك العادل الصغير فأكرمه العادل وأقام الصالح نجم الدين بنابلس ينتظر مجئ عمه الصالح إسماعيل ولكنه لم يلتفت إلى إبن أخيه الصالح نجم الدين وتوجه نحو دمشق وهجم عليها بصحبة أيوبي آخر هو أسد الدين شيركوه صاحب حمص ودخلوها، كلّ ذلك والصالح نجم الدين مقيم بنابلس واتفق الأيوبيان الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك وأسد الدين شيركوه صاحب حمص على أن يقتسمان الغنائم والبلاد والعباد[2].

هذه هي الأوضاع السياسية في المنطقة العربية حروب وضغائن ومؤامرات وقبل هذا كانت البلاد لا تزدان إلا لقهر عدو أجنبي والخلاص منه، ولكن العداوة حين فقدت الأعداء وجدت الأقرباء فلم تعدم ميداناً تستشري فيه، فكانت الأحداث تتوالى بسرعة نحو الصدام الداخلي بين الأخوين العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب.

أما الناصر داؤود والذي كان لا يزال موجوداً بالقاهرة بقي عليه التخلص من الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أخ عماد الدين عمر والذي نجح في التخلص منه قبل ذلك. وذلك حتى يخلو له الجو ويزيل العادل الصغير من أمامه ويتولى هو حكم الديار المصرية، لذلك أخذ يكيد لفخر الدين عند العادل الصغير ولم يلبث الناصر داؤود أن نجح في ذلك فتشكك العادل من الأمير فخر الدين وألقى القبض عليه وأودعه السجن[3].

بعد ذلك خلا الجو للناصر داؤود لكي يعبث بالعادل الصغير كيفما يشاء خاصة بعد أن إضطربت الإمور داخل الديار المصرية، وذلك لسوء تدبير العادل الصغير وازدياد

---

* الإسماعيلية في الأصل فرقة من الشيعة ومن المشهورين في تاريخ الإسماعيلية حسن الصباح مؤسس شعبة الإسماعيلية المعروف أتباعها بإسم الحشيشين في بلاد فارس وقد تفرع عنها فرع بالشام ومركزه حلب وهو المقصود هنا وقد كانت هذه الفرقة عبارة عن جمعية سرية وكان الإغتيال والقتل أهم أساليبها / المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص277.

[1] أبو الفداء: مصدر سابق، ج3، ص168.

[2] الإبياري: مصدر سابق، ص105.

[3] المقريزي: مصدر سابق، ص276.

السخط عليه والكراهية المتزايدة له من كافة أمراء الديار المصرية، ويبدو أن هذا السخط الذي عمّ مصر إزاء سياسة العادل الصغير أدى إلى ألا يحقق الناصر داؤود شيئاً من أهدافه التي تتركز حول الإطاحة بحكم العادل وتولي السلطنة الأيوبية بالديار المصرية[1].

وفي هذه الفوضى السياسية كاتب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي تولى حكم دمشق خلفاً للجواد يطلبون منه القدوم إلى مصر ويعدونه بالمساعدة، وما أن وصلت رسل الأمراء المصريين إلى الصالح نجم الدين إلا وسارع بتجهيز نفسه وخرج على رأس جيشه متجهاً صوب الديار المصرية[2].

ولمّا علم الناصر داؤود صاحب الأردن والكرك بهذه الأحداث إضطرب وأحسّ بأن الديار المصرية أصبحت وشيكة الخروج من يده، لذلك أسرع بالخروج من مصر واتجه فوراً صوب بلاد الشام ليمنع الصالح أيوب من الوصول إلى مصر، ولما وصل إلى حصن الكرك إستقر به وانتظر وصول الملك الصالح نجم الدين ولما وصل الصالح دعاه الناصر للإجتماع به داخل الحصن وما أن دخل الصالح أيوب إلى حصن الكرك حتى ألقى الناصر داؤود القبض عليه وسجنه داخل الحصن وفرّ عنه الجنود الذين كانوا بصحبته فبقى في دون المائة من أمرائه وأجناده، ولم يقف بجانبه سوى مماليكه الذين سبق وأن إشتراهم الصالح نجم الدين ورباهم وكذلك جاريته التي تسمى شجر الدر أم ولده خليل واستمرت المهزلة الأيوبية[3].

وفرح العادل الثاني كثيراً بما جرى على أخيه وظنّ أنه قد أَمِن وأمر بزينة القاهرة ومصر وعمل سماطاً عظيماً في الميدان الأسود تحت قلعة الجبل وعمل قصوراً من حلوى وأحواضاً من سكر وليمون وألفاً وخمسمائة رأس شواء، بل أن العادل طلب من إبن عمه أن يبعث إليه بأخيه الصالح في قفص من حديد مقابل مبلغ كبير من المال[4].

ولكن الناصر داوؤد جعل الصالح يقرأ ما طلبه أخوه ووكتب إليه مواسياً:

وإذا مسك الزمان بضر عظمت عنده الخطوب وجلت
وتوالت منه نوائب أخرى سئمت عندها النفوس وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأماني لرزايا إذا توالت تولت

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1032.
[2] إبن خلكان: مصدر سابق، ج5، ص84.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص125.
[4] قاسم عبده قاسم: المرجع نفسه، ص125 – 126.

فكتب إليه الصالح نجم الدين يشكره:

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر ؟
أما تري البحر تطفو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
وإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا وما لنا من تمادي بؤسه ضرر
ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر[1]

واستمر الصالح أيوب في أسر الناصر شهوراً طويلة والناصر يفاوض بشأنه العادل في مصر حتى يئس الناصر من بلوغ أمنيته في إعتلاء عرش دمشق عن طريق العادل الصغير فقرر الناصر داؤود ان يفرج عن الصالح أيوب فاستدعاه إليه فلما قدم عليه إلتقاه وضرب له دهليز السلطنة واجتمع عليه ممالكيه وأصحابه الذين كانوا عند الناصر، وسار الناصر داؤود والصالح نجم الدين إلى القدس وتحالفا على أن يتعهد الصالح أيوب بالإستيلاء على مصر وانتزاعها من يد العادل الصغير ويمنحها للناصر داؤود، كما يستعيد الصالح أيوب نصف دمشق وبعض البلدان الواقعة في شمال بلاد الشام. وتمّ الإتفاق بين الناصر داؤود وبين الصالح أيوب على هذه الشروط المهينة ووافق الصالح عليها حباً في الخلاص من الأسر وتمّ الإفراج عنه وأخذ في تجهيز جيش زحف به نحو مصر. وكانت الظروف مهيأة تماماً لنجاح حملة الصالح أيوب، فكبار أمراء العادل الصغير مستاءون منه لإحتجابه وإنشغاله باللهو واللعب عن تدبير شئون الدولة[2].

وما أن علم العادل الصغير في مصر بتلك التطورات وخروج الصالح أيوب من سجنه بالكرك واتجاهه نحوه لإنتزاع مصر من يده خاف خوفاً شديداً واضطربت مصر إضطراباً شديداً وأخذ في ترتيب جنوده لصد هجوم الصالح نجم الدين واتخذ من مدينة بلبيس خط دفاع له، وبمجرد وصول الصالح أيوب إلى مصر ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيبك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل الصغير وقبضوا عليه ووكلوا من يحفظه في خيمة فلم يتحرك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد إهتموا بالقيام له فمال عليهم الأتراك ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القاهرة وألقى أمراء مصر القبض على سلطانهم اللاهي، وكان ذلك في نهاية مايو 1240م وعزلوه فكانت مدة ملكه

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص290-291.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص293-294.

سنتين وشهرين وثمانية عشر يوماً أسرف فيها إسرافا أفرط فيه، وكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات للين جانبه وكثرة إحسانه[1].

رحبّ أمراء الديار المصرية بوصول الصالح نجم الدين أيوب وسلموه العادل الصغير وسار الصالح إلى قلعة الجبل ومعه العادل الثاني مقيداً، ودخل الصالح نجم الدين أيوب القاهرة في 19 يونيو 1240م ليصبح سلطاناً على مصر(1240–1249م) وزينت القاهرة ومصر وظواهرها وقلعة الجبل زينة عظيمة وسر الناس به سرورا كثيراً لنجابته وشهامته، فبسط العدل في الرعية وأحسن إلى الناس وأخرج الصدقات ورمم ما تهدم من المساجد[2].

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا أن المماليك بلغوا من القوة في الدولة الأيوبية ما جعلهم يخلعون سلطاناً ويقيمون آخر، وفي غمرة هذه الفوضى السياسية وهذا الإختلاف بين الأيوبيين عمر الفرنج في القدس قلعة منتهكين شروط المعاهدة الكاملية الفردريكية، وجعلوا برج داؤود أحد أبراجها فهاجمهم الناصر داؤود ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها عنوة بمن معه من عسكر مصر واستولى على القدس وأخرج الفرنج فساروا إلى بلادهم وكان إسترداد بيت المقدس حدثاً ذا وقع مفرح على المسلمين الذين أقاموا المآتم يوم سلمه الكامل إلى الصليبيين قبل عشر سنوات من هذا التاريخ[3].

وفي هذا دلالة على أن الأيوبيين لم يتخلوا عن صراع الصليبيين في كل الأوقات ولم تشغلهم منازعاتهم الداخلية عن صد الصليبيين عن بلادهم.

وأخيراً تولى الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر لتبدأ بذلك المرحلة الأخيرة في حكم الأسرة الأيوبية.

---

[1] المصدر نفسه: ص295-296.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص310.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص126.

الصراع الأيوبي الصليبي 1239 – 1249م
وأثره على الدولة الأيوبية

إضطربت الأوضاع في بلاد الشام وأصحبت الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام تعاني من الكثير من العبث الأيوبي بسبب المنازعات بين أمراء بني أيوب، من ذلك نزاع أسد الدين شيركوه صاحب حمص ودخوله في حرب ضد المظفّر تقي الدين الثاني صاحب حماة. كما استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق سنة 1239م، واشتبك مع أخيه العادل الثاني الذي خلف أباه على حكم مصر وبلاد الشام واستعان كل منهما بفئة من الأمراء الأيوبيين للوقوف في وجه الآخر وبفريق من الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتي حاملين معهم الويل والخراب[1].

ثم حدث في نهاية سنة 1239م أن إستطاع إسماعيل أن يسترد دمشق التي كان أخوه السلطان الكامل قد طرده منها وأن يطرد بدوره الصالح أيوب من دمشق، ولم يلبث هذا النزاع أن أوقع الدولة الأيوبية في حالة شديدة من الفوضى في الوقت الذي تعرضت فيه بلاد الشام لغزو جموع الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية، ثم مجئ حملة صليبية إلى الشام من ناحية ثالثة وفي خلال تلك الفترة كانت البابوية مستمرة في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، ووصلت إلى الشام فعلاً حملتان صليبيتان لا يسلكهما التاريخ في عداد الحملات الكبرى عرفت الأولى بالحملة الفرنسية والثانية بالحملة الإنجليزية[2].

أ – الحملة الفرنسية سنة 1239م:

أما الحملة الفرنسية فقد تجمعت في فرنسا ومعظم جنودها من الفرنسيين وأبحرت من موانئ جنوب فرنسا في أغسطس 1239م وعلى رأسها ثيبوت الرابع أمير شمبانيا وملك النافار وقد كانت تلك الحملة جزءاً من حملة صليبية لم تأخذ رقماً جرت مابين سنة 1239م وسنة 1241م والواقع أنها كانت حملة عجيبة فقد تم إعدادها في جو تسوده

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1032.
[2] المرجع نفسه: ص1033.

ضبابية الفوضى والأهداف المتعارضة. كذلك فإن جنود هذه الحملة أمضوا معظم وقتهم في سلام بعكا ويافا وعسقلان ولم يقوموا بأي نشاط عسكري سوى إشتباكين إنتهى أحدهما بإنتصار صغير على حين إنتهى الإشتباك الثاني بهزيمة كارثية[1].

وصلت الحملة الفرنسية إلى عكا في 1239م وتمركز الجيش هناك وكانت ظروف الخلافات الأيوبية / الأيوبية تشجع الصليبيين على القيام بالهجوم عليهم، ولكن قائد هذه الحملة كان قائداً فاشلاً وسياسياً متقلباً فلم يستطع أن يحسم رأيه. وعندما علم الناصر داؤود صاحب الأردن بنزول الصليبيين في عكا خرج على رأس جيش صغير قاصداً القدس، وكان الصليبيون قد عمروا القدس وحصنوها وبذلك نقضوا الشروط المتفق عليها مع المسلمين، فتحجج الناصر داؤود بما فعله الصليبيون وتمثل رد الفعل الإسلامي في الهجوم الذي قام به على القدس وهدم تحصيناتها المستجدة وطرد الصليبيين منها فساروا إلى بلادهم[2].

وهكذا لم يكد الصليبيون يجمعون شملهم في عكا حتى سمعوا نبأ إستيلاء المسلمين على بيت المقدس فاجتمع زعماء الحملة بأمراء الصليبيين بالشام لدراسة الموقف وتحديد الخطوة التي يجب أن يتخذها الصليبيون. ولم يلبث أن إنقسم الصليبيون على أنفسهم فرأي بعضهم أن تقصد الحملة مصر بوصفها القلب النابض في الدولة الأيوبية فإذا إستولى الصليبيون على دمياط أو الإسكندرية أمكنهم عمل مقايضة مع الأيوبيين فيستردون بيت المقدس بسهولة ورأي البعض الآخر أن يتجه الصليبيون نحو دمشق مباشرة في حين نادى فريق ثالث بالإتجاه إلى صفد شمال غربي طبرية والإستيلاء عليها من المسلمين وتحصينها لتصبح للصليبيين قاعدة حصينة يتخذونها مركزاً لعملياتهم الحربية ضد دمشق وبيت المقدس جميعاً أما الفريق الرابع فقد أصر على أن يتجه الصليبيون إلى بيت المقدس مباشرة وتركيز الجهود في الإستيلاء عليها. وأخيراً إستقر رأي الصليبيين على أن يقصدوا عسقلان أولاً لهدم تحصيناتها والإستيلاء عليها وبعد ذلك يقصدون دمشق لإنتزاعها من المسلمين[3].

وحقيقة أن هذه الخطوة كان من شأنها أن توقع الصليبيين في عداء مع العادل الثاني (الصغير) الذي كان لا يزال سلطان مصر والذي كانت تتبعه عسقلان ثم مع الصالح

---

[1] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص67-68.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص291.
[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1035.

إسماعيل ملك دمشق الجديد وقد أسرع الصالح إسماعيل بعد سماعه نية الصليبيين إلى تحصين دمشق في حين بادر العادل الثاني إلى إرسال قوة كبيرة من مصر إلى غزة للدفاع عن عسقلان[1].

وأخيراً غادر الصليبيون عكا في أوائل نوفمبر سنة 1239م قاصدين عسقلان عن طريق يافا ولعل نجاح الصليبيين أثناء طريقهم في الإستيلاء على قافلة إسلامية محملة بالبضائع ومتجهة نحو دمشق شجع جماعة كبيرة على الانشقاق عن بقية الجيش الصليبي والإندفاع نحو غزة للقضاء على الجيش الذي أرسله العادل الثاني والذي سمع الصليبيون بأن عدته تبلغ ألف جندي فقط. وكان أن إنتهى الأمر بتمزيق تلك القوة الصليبية على يد المسلمين قرب غزة في 13نوفمبر 1239م وقتل منهم ألف وثمانمائة ولم يقتل من المسلمين غير عشرة وأسر بعض زعماء الصليبيين وأمرائهم فضلاً عن مائتين وخمسين راجلاً سيقوا إلى القاهرة وعندما وصلت أخبار تلك الكارثة إلى بقية الجيش الصليبي عند عسقلان إضطر الصليبيون إلى الإنسحاب إلى يافا ومنها إلى عكا[2].

وقد بلغ من جهل الصليبيين بأحوال الأيوبيين في ذلك الوقت أنهم ظنوا أن الأيوبيين سيطاردونهم بعد الإنتصار الذي أحرزوه في غزة، وحقيقة الأمر أن النزاع كان قد إستحكم بين أبناء البيت الأيوبي الأمر الذي جعل المظفر تقي الدين صاحب حماة يطلب معونة الصليبيين ضد أعدائه شيركوه صاحب حمص والصالح إسماعيل صاحب دمشق وضيفه خاتون الوصية على حلب، وقد قبل الصليبيون عروض صاحب حماة وساروا لمساعدته ولكن الإمور سارت في إتجاه معاكس لطموحات القائد الصليبي إذ كان أنصار الصالح نجم الدين أيوب يسعون إلى إطلاق سراحه وإعادة عرش الأيوبيين في مصر إليه. وسرعان ما سارت الأحداث في هذا الإتجاه حتى تولى الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر 19 يونيو 1240م وبقيّ عليه أن يواجه الصليبيين وبقية الأيوبيين. وكانت ظروف البلاد غاية في السوء وما تزال الأحوال الداخلية في مصر والمنطقة غارقة في فوضى الإقتتال والنزاع، كما أن الحملة الصليبية كانت تتجول في المنطقة تبحث عن هدفها الضال[3].

---

[1] المرجع نفسه: ص1036.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص322.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص129.

وحين وطّد الصالح نجم الدين حكمه في مصر بات واضحاً أن الصدام وشيك بينه وبين عمه الملك الصالح إسماعيل الذي كان قد طرده من دمشق وتسبب في تشرده فترة من الوقت، وقد واجه الصالح نجم الدين عداءً شديداً منذ اليوم الأول لحكمه من الصالح إسماعيل صاحب دمشق وذلك لأن الصالح أيوب أراد أن يرضي حليفه الناصر داؤود صاحب الكرك فوعده بمساعدته في الحصول على دمشق من الصالح إسماعيل الذي لم يجد قوة تقف إلى جانبه فسارع إلى التحالف مع الصليبيين ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داؤود في الأردن كان ثمن هذا التحالف غالياً تعهد فيه بأن يعيد بيت المقدس إلى الصليبيين وأن يتوقف المسلمون عن الإشراف الفعلي عليه وإعطائهم قلعة الصفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[1].

ولم يضع الصالح إسماعيل وقتاً وقرن عرض الخيانة بالعمل لكي يبرهن على صدق نيته تجاه الصليبيين فبادر فوراً إلى تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ومعها طبرية وعسقلان وعدد من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين وأثار هذا التصرف وهذه التنازلات الخرقاء غضب المسلمين فثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام وسائر أنحاء العالم الإسلامي على الصالح إسماعيل مثلما ثار من قبل ضد السلطان الكامل لتفريطه في بلادهم وعظم ذلك على المسلمين وأكثروا التشنيع عليه، ثم أن الحامية الإسلامية في الشقيف أرنون رفضت أن تسلم الحصن للصليبيين فحضر الصالح إسماعيل بنفسه لمحاصرتها حتى اضطرت الحامية للتسليم، وكانت فرحة الصليبيين طاغية من هذا العمل الذي جاءهم دون أن يضربوا فيه سيفاً أو يخسروا نفساً، فأسرعوا إلى إستلام القدس كما حصنوا قلعتي طبرية وعسقلان ورابطوا ما بين يافا وعسقلان وحشدوا قواهم واتجهوا صوب غزة[2].

ولكي يغري الصالح إسماعيل جموع الصليبيين على الإستمرار في التحالف وعدهم أن يعطيهم جزءاً من مصر إن ملكها فانطلقوا إلى غزة عازمين غزو مصر وحضر لمعاونتهم في غزو مصر جيش الصالح إسماعيل وجيش الملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص. غير أن القوات الإسلامية كان لها رأي آخر غير رأى قادتها

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص315.
[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص322.

السفهاء فانضمت إلى الجيش المصري وأبت أن تقاتل إخوانها المسلمين، وكان لهذه الخطوة أثرها فحلت الهزيمة بالصليبيين حين تقابل الفريقان وقتل منهم أعداداً كبيرة وسيق الأسرى إلى القاهرة[1].

أما الصليبيون فكانت خيبة أملهم كبيرة بعد أن ظلوا يمنون أنفسهم بالحصول على جزء من مصر كما وعدهم الصالح إسماعيل فانسحبوا من عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين أيوب سنة 1240م. وهكذا بني أيوب يتناسون خلافاتهم بمجرد أن يروا الموقف يتطلب منهم مهاجمة الصليبيين ودحرهم عن الأراضي الإسلامية، وما كسب الصليبيون مكاسب في الشرق إلا وخسروا خلقاً لا يحصون[2].

ولم تلبث الحملة الفرنسية أن بارحت عكا عائدة إلى الغرب في سبتمبر سنة 1240م بعد أن إستعادت للصليبيين بيت المقدس وصفد وعسقلان فضلاً عن بعض القلاع الداخلية.

ب – الحملة الانجليزية 1240 – 1241م:

ولم تكد الحملة الفرنسية تغادر الشرق حتى قدمت الحملة الإنجليزية إلى عكا في أكتوبر 1240م يقودها ريتشارد كورنول شقيق ملك إنجلترا، وعندما وصل ريتشارد إلى عكا وجد أن الإمور وصلت إلى أدنى مستوى من التدهور داخل الكيان الصليبي إذ كانت المنازعات المريرة قد فرقتهم؛ فقد كان الإسبتارية يؤيدون المعاهدة مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب حين كان فرسان الداوية يتمسكون بالمعاهدة مع ملك دمشق الصالح عماد الدين إسماعيل فاكتفى بتقوية حصون عسقلان لتقوية إستحكاماتها وبعقد إتفاقية جديدة مع الملك الصالح توطد دعائم السلام وتزيد من مكاسب الصليبيين، وبمقتضى تلك الإتفاقية إعترف الصالح أيوب بحق الصليبيين في ملكية الشقيف أرنون وإقليم الجليل بما فيه حصن تبنين وهونين وطبرية والطور وكوكب فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان[3].

وأخيراً أبحر ريتشارد كورنول من عكا في أوائل مايو 1241م عائداً إلى بلاده بما حققه من إنتصار دبلوماسي رفيع وبعد أن نجح بحسن سياسته في إتمام العمل الذي قام به ثيبوت الرابع، ولكنه ترك الصليبيين غارقين في منازعتهم التي أودت بهم إلى النهاية فقد

---

[1] وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 1995، ص30.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص318.
[3] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص71-72.

دخل الصليبيون في بلاد الشام مرحلة جديدة من مراحل تاريخهم وقد إتصفت هذه المرحلة بإشتداد المنازعات فيما بينهم وبخاصة بين الداوية والإسبتارية، وفي أثناء الحرب التي نشبت بين الفريقين حرص الداوية على نقض الصلح مع الصالح ايوب في مصر والإعتداء على المسلمين. وعندما واصل الداوية وأشياعهم من الصليبيين عدوانهم على المسلمين في منطقة الجليل ردّ الملك الناصر داؤود صاحب الأردن بالتضييق عليهم وعلى تجارتهم فتمثل رد الأيوبيين عسكرياً وإقتصادياً، ففكر الداوية في الإنتقام وخرجوا من عكا ويافا واعتدوا على نابلس ونهبوا وقتلوا وأسروا وكان ذلك في آخر أكتوبر 1242م[1].

وعلى الجانب الآخر كانت المنازعات الأيوبية / الأيوبية مستمرة وفشلت كل محاولات التوفيق، وتكوّن حلف جديد من الأيوبيين في الشام ضد نجم الدين أيوب في مصر واستعان الأيوبيون (الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داؤود صاحب الأردن) بالصليبيين مقابل أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الأماكن التي ظلت في حوزة المسلمين منذ أن تسلم الصليبيون بيت المقدس بمقتضى إتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني 1229م[2].

أما الصالح نجم الدين أيوب فقد إستدعى الخوارزمية لمساندته ومحالفته ضد ملكي دمشق والأردن مقابل الثمن نفسه وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داؤود قد أقروا في تلك الفترة 1243 – 1244م مبدأ إستيلاء الصليبيين على الحرم الشريف الأمر الذي جعلهم يسيطرون فعلاً على تلك الأماكن الطاهرة ويسيئون إستخدامها. والواقع أن مكاسب الصليبيين كانت تزداد بفعل النزاع المستمر بين أمراء الأسرة الأيوبية[3].

تحوّل الموقف في بلاد الشام تحولاً سريعاً بعد إستعانة الصالح أيوب بالخوارزمية الذين تفرقت بهم السبل بعد إنهيار دولتهم ومقتل سلطانهم جلال الدين خوارزم شاه. ولم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إلي الخوارزمية حتى إندفع عشرة آلاف منهم في فرحة كبرى نحو بلاد الشام الصليبية وهم ينهبون ويقتلون ويسبون، ولمّا سمع بذلك عساكر الملك

---

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص131.
[2] قدري قلعجي: مرجع سابق، ص519.
[3] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص322.

الصالح إسماعيل الذين بغزة إضطروا للرجوع غلى دمشق، كما رحل الملك الناصر داؤود إلى الكرك. وواصل الخوارزمية سيرهم فأغاروا على المدن والقلاع التي صادفتهم في طريق دمشق واستولوا على طبرية ونابلس ومنها قصدوا بيت المقدس واحتلوها في 11 يويو 1244م بسهولة وقاموا فيه بعملية نهب واسعة النطاق وقتلوا من كان بها من النصاري وسبوا النساء ونبشوا قبور النصاري وأحرقوا جثثهم. فطلب من بالمدينة من الصليبيين من الملك الناصر داؤود صاحب الأردن تأمين خروجهم فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم قادصين يافا. ثم إتجه الخوارزمية بعد ذلك صوب غزة للإجتماع بالجيش المصري الذي أرسله الصالح أيوب بقيادة ركن الدين بيبرس لمحالفتهم، وفي ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامي – الصليبي قد إتجهت من عكا نحو غزة وقد كان مع الجيوش الصليبية المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبته قوات دمشق كما أتتهم نجدة الناصر داؤود صاحب الكرك[1].

وفي هذا ما يؤسف له لإشتراك أولئك الأيوبيين مع الصليبيين. أين هؤلاء من صلاح الدين الأيوبي ودوره مع الصليبيين في حطين؟ وقد ذكر المقريزي أن الفرنج رفعوا الصلبان على عسكر دمشق وفوق رأس المنصور صاحب حمص[2].

وفي غزة إلتقى الجمعان في موقعة غزة الثانية في 17 أكتوبر سنة 1244م وكان اللقاء رهيباً وحلت الهزيمة بالصليبيين ومن إنضم إليهم من المسلمين وأخذت سيوف المسلمين الفرنج فأفنوهم قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم إلا من شرد فكان عدة من أسر منهم ثمانمائة رجل وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفاً وحاز الخوارزمية من الأموال ما يفوق الوصف، وبعد هذه الهزيمة الشنيعة تفرق الحلف الأيوبي – الصليبي البائس واستولت قوات الصالح أيوب على غزة والساحل والقدس والخليل ثم سقطت دمشق بعد حصار دام ستة أشهر (أكتوبر 1245م) وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرها فبالغ الناس في الزينة وضربت البشائر عدة أيام وقدمت أسرى الفرنج ورؤوس القتلى وعدة من الأمراء والأعيان وعلقت الرؤوس على أبواب القاهرة [3].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص316.
[2] المصدر نفسه، ص318.
[3] القلقشندي: مصدر سابق، ص184.

ولا شك في أن هذه كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة 1187م حتى أطلق المؤرخون على موقعة غزة الثانية إسم (حطين الثانية). وهكذا بني أيوب ما التقوا بالصليبيين إلا وكبدوهم الخسائر الفادحة ويكفي أنه في هذه الموقعة إشترك ثلاثمائة من الداوية لم ينج منهم سوى ثلاثة وثلاثين، واشترك فيها مائتان من الإسبتارية لم ينج منهم سوى ستة وعشرين، في حين فقد الباقون بين قتلى وأسرى[1].

أما الخوارزمية فقد كانوا يأملون في الإستقرار في مصر مكافأة لهم، ولكن الصالح أيوب خشي على ما يترتب على دخولهم من ضرر بالبلاد والعباد فأباح لهم الإستقرار بالشام على حساب الصليبيين. ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكان الصليبيين وضياعهم حتى وصلوا قرب عكا، وفي تلك الأثناء تخلى الجيش المصري عن الخوارزمية واتجه لعقاب صاحبي الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين فأخذ من الناصر داؤود القدس والجليل والأغوار، أما صاحب دمشق فقد أرسل السلطان الصالح أيوب حملة ضده بقيادة الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ لمهاجمة دمشق[2].

وكان الخوارزمية قد إستاءوا من الصالح نجم الدين أيوب لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطاء بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه وفي تملك بلاد الشام وظنوا أنه سيقاسمهم البلاد، فلما لم يحصلوا على شئ فسدت نيتهم له واتفقوا على الخروج عن طاعته وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس* وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب وكان بغزة وحسنوا له الإنضمام إليهم في ثورتهم ضد الصالح أيوب وثاروا بالشام واعتدوا على داريا ونهبوها وزحفوا على دمشق وحاصروها حصاراً شديداً ثلاثة أشهر وقطعوا عنها الإمدادات فاشتد الغلاء بها ومات كثير من الناس جوعاً وأكل الناس القطط والكلاب والميتات[3].

على أن السلطان الصالح أيوب لم ييأس رغم ذلك الموقف ولجأ إلى إعمال الحيلة والتدبير فاستمال إليه الحلبيين فضلاً عن المنصور إبراهيم صاحب حمص كما استدعى الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه. وبفضل هذه الإجراءات تمكنت جيوش الصالح أيوب وحلفائه من إنزال هزيمة

---

[1] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1047.

[2] المقريزي: مصدر سابق، ص319.

* ركن الدين بيبرس أصله من مماليك الملك الكامل وهو الذي إنتصر بالخوارزمية وعساكر مصر على الصليبيين ثم انقلب مع الخوارزمية ضد السلطان فمازال به حتى اعتقله وأعدمه وهو غير الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك فيما بعد/ المقريزي: مصدر سابق، ص350.

[3] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص324.

ساحقة بالخوارزمية قرب حمص في 20 مايو 1246م فتبدد شملهم ولم تقم لهم بعدها قائمة[1].

لم تتوقف الحرب ضد الصليبيين بالشام واستمرت دائرة وحمل عبئها الجيش المصري تحت قيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ. وفي يونيو 1247م إستولت جيوش الصالح أيوب على قلعة طبرية من الصليبيين وهدمت ما استجده الفرنج من القلاع ثم سارت إلى محاربة الكرك وألحق بالناصر الهزيمة واستولى على جميع البلاد التابعة له حتى اضطر الناصر إلى طلب الأمان من فخر الدين، كما إستطاعت قوات الأمير فخر الدين إقتحام عسقلان حتى منتصف اكتوبر 1247م وأمر بتدمير تحصيناتها وتخريبها حتى لا يتخذها الصليبيون مرة أخرى قاعدة للهجوم على المسلمين في مصر[2].

وهكذا إستعادت الدولة الأيوبية في مصر والشام وحدتها السياسية بكاملها تقريباً وهكذا إرتفعت الدولة الأيوبية وهكذا بلغت من العظمة والقوة والإنطلاق بزعامة الملك الصالح نجم الدين أيوب وسيطر على القاهرة ودمشق وبيت المقدس واعترف الأمراء الأيوبيون في الشام بسلطته وهرعوا إليه لتقديم فروض الولاء والطاعة. كذلك زار الصالح أيوب بيت المقدس (1248–1249م) بعد أن عادت للدولة الإسلامية فقوى تحصيناتها وتوافد إليه الملوك والأمراء لإعلان الولاء والتبعية له بينما انحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا[3].

فكان لا بد من أن يقوم الغرب الأروبي بعمل إيجابي جديد لإنقاذ مستعمراته في الشرق ولتدارك الموقف فيه قبل فوات الأوان فكانت الحملة الصليبية السابعة.

ج–الحملة الصليبية السابعة 1249م وأثرها على الدولة الأيوبية

إذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة 1187م هو الذي بعث إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فإن سقوطها في سنة 1244م في يد الصالح نجم الدين أيوب وحلفائه الخوارزمية كان السبب الذي أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع (Louis ix) ملك فرنسا على مصر، إذ أن أنباء الهزائم التي مني بها الصليبيون عند غزوه وتسليمهم بيت المقدس والفظائع التي إرتكبها

[1] ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص325.
[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1049.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص327.

الخوارزميون وصلت أوربا في كثير من المبالغة المعهودة فكان لا بد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية في قلب لويس التاسع وأخذت البابوية تدعو الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية لإنقاد صليبي الشرق. وقد كانت الفكرة السائدة في أوربا هي الإتجاه صوب الديار المصرية وقد مرت بعدة مراحل منذ أواسط القرن الثاني عشر إلى أن وصلت إلى طور النضج والكمال في حملة لويس حيث ساد الإعتقاد بين أهل الغرب انه لا يمكن إمتلاك البيت المقدس والمحافظة علي كيان الصليبيين بالشرق العربي إلا بالإستيلاء على مصر زعيمة العالم الإسلامي ومركز إمداده ومعقله المنيع في ذاك الحين[1].

توجس الصليبيون خيفة من الدولة الأيوبية الناهضة وباتوا بين شقي الرحى وانحصر هدفهم من ذلك الحين في إزالة قوتها من الميدان ليتثنى لهم إعادة بيت المقدس. غير أن الأحداث في الغرب الأوربي آنذاك لم تساعد على أن تلبي معظم الدول الأوربية نداء البابوية فيما عدا ملك فرنسا الذي كان قد نذر أثناء مرضه الخطير عام 1244م أن يقوم بحملة صليبية إذا عوفي من هذا المرض، وهكذا كانت الحملة السابعة فرنسية بحتة[2].

والواقع أن بقايا الصليبيين في المشرق كان معظمهم من الفرنسيين أو المنحدرين من أصل فرنسي حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحملة الصليبية السابعة حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى، وقد جاءت الحملة السابعة تؤكد ذلك وتحمل بالرغم من صفتها الدينية الظاهرة طابعاً استعمارياً محضاً[3].

ولم يكن هدف تلك الحملة إعادة الإستيلاء على بيت المقدس أو ضرب مصر بإعتبارها قاعدة حربية هامة فحسب وإنما استهدفت أيضاً هدفاً بعيد المنال يتمثل في تكوين حلف مسيحي وثني بين الصليبيين والمغول يهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام من ناحية ويطوق العالم الإسلامي ويحيط من الشرق والغرب من ناحية أخرى[4].

وكانت الخطة البابوية تقوم على أساس أن تهاجم الحملة الصليبية الدولة الأيوبية من سواحل البحر المتوسط وأن تبدأ برنامجها العسكري بإحتلال دمياط أهم موانئ الحوض

---

[1] جوزيف نسيم: مرجع سابق، ص24-25.

[2] جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية العصران الأيوبي والمملوكي، ج 2، دار المعارف، مصر، 1967، ج2، ص123.

[3] سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، 1957، ص43.

[4] Joinville: the life of Saint Louis (transl.with an introduction by: M. R. B. shaw, benguin 1975), pp.197-198

الشرقي للبحر المتوسط آنذاك وفي الوقت نفسه تتقدم القوات المغولية من ناحية الشرق لتشن هجومها على المنطقة وكانت القوات المغولية البربرية قد نجحت في إجتياح الجانب الشرقي من العالم الإسلامي.

أرسل البابا أنوسنت الرابع* سفارتين إلى المغول لتحقيق هذا الغرض غير أنهما لم يكللا بالنجاح فقد كان لخان المغول الأعظم رأي آخر إذ أرسل إلى البابا يطلب منه أن يعترف له بالسيادة العليا ويعلن خضوعه له هو وملوك أوربا بل طالبه بأن يأتي إلى بلاطه جميع ملوك أوربا لتقديم الجزية بإعتباره الخان الأعظم للتتر وسيد العالم بأسره وهكذا فشل المشروع على الرغم من كثرة السفارات المتبادلة بين الجانبين[1].

لم يغير فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي من الأمر شيئاً وبدأت الإستعدادات في فرنسا على قدم وساق لإرسال الحملة الصليبية وسرت الحماسة بين الفرنسيين للسير في ركاب لويس وتدفق المتطوعون من جميع أنحاء فرنسا وتزايدت أعدادهم يوماً بعد يوم غير أن البحرية الفرنسية لم تكن تملك من السفن ما يكفي لنقل حملة حربية كبيرة عبر البحر المتوسط، ولذلك طلب لويس من جمهورية جنوا ومدينة مرسيليا تأجير سفنها لذلك الغرض وعقد معها إتفاقيات بهذا الشأن. أما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن خوفاً على مصالحها التجارية مع مصر والشام كما أرسل لويس إلى جزيرة قبرص جماعة من رجاله لشراء ما يحتاجه الجيش من الأطعمة والمؤونة حتى يجدها معدة عند مروره بالجزيرة التي إعتبرت القاعدة التي تلتقي عندها الجيوش الصليبية الذاهبة إلى غزو الشرق[2].

عقد الملك لويس التاسع إجتماعاً لكبار قواده فاتفق الحاضرون على أن مصر هي الجديره بالهجوم بإعتبارها مفتاح المشرق العربي الإسلامي لدخوله بيت المقدس ولا فائدة من أن يقوم الصليبيون في الشام بالإستيلاء على بيت المقدس ثم تخرج الجيوش الأيوبية من مصر لهدم ما بناه الصليبيون بالشام. ولأن مصر هي المركز الإستراتيجي الحامي لظهر الحركات الحربية الإسلامية ضد الصليبيين ببلاد الشام، كما أن الهجوم على مصر والإستيلاء على دمياط بالذات فيه محو للعار الذي لحق بالصليبيين بالجلاء عنها من قبل زمن الملك حنا دي برين وثم أن لدمياط في أيدي الصليبيين قيمة

---

* تم إنتخابه ليشغل منصب البابا في سنة 1243م وأعلن تأييده للحملة الصليبية السادسة/ أحمد تمام www.islamonline.com .

[1] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص133.

[2] إبن واصل: مصدر سابق، ص351.

يستطيع الملك لويس التاسع إستخدامها للمساومة إذا عرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب شروطاً للهدنة والمبادلة ببيت المقدس على نهج ما حدث وتقرر أيام أبيه الملك الكامل محمد[1].

وصلت أنباء تحركات لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب خلال إقامته بدمشق وعساكره على حصار مدينة حمص إذ بعث إليه الإمبراطور فردريك الثاني رسولاً من قبله تنكر في زي تاجر ليحذر الملك الصالح من تلك الحملة ويخبره بالإستعدادات الأوربية للهجوم على مصر، كما ترامي إليه تجمع الحشود الصليبية في قبرص واستعدادها لغزو مصر والإستيلاء عليها فرجع إلى مصر على الرغم من مرضه وبدأ في ترتيب أوضاعه العسكرية[2].

ولما علم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون طريق الصليبيين المفضل لغزو مصر عسكر بجيوشه جنوبها في بلدة (أشموم طناح) التي تسمى (أشمون الرمان) بمركز دكرنس التابع لمحافظة الدقهلية شمال مصر وأمر بتحصين المدينة[3].

أما دمياط نفسها فتقع على الجانب الأيمن للفرع الشرقي للنيل وكانت مدينة حصينة تحيط بها الأسوار والأبراج كما أنها كانت تتمتع بمكانة مرموقة في النواحي الجغرافية والتجارية والصناعية مما جذب أنظار أهل الغرب إليها هذا فضلاً عن أنها كانت أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس وهي الهدف الأساسي الذي قامت من أجله هذه الحملة، ويبدو أن ميناء دمياط كان مغرياً للصليبيين على قصده بالذات لأنه يؤدي بهم إلى القاهرة مباشرة وهي قلب الدولة أو رأس الحية كما وصفها الفارس اللاتيني روبرت كونت أرتوا شقيق لويس التاسع[4].

وفي شهر مايو 1249م كان لويس التاسع قد جمع قواته وسفنه في ميناء ليماسول إستعدادا للإبحار إلى مصر بعد أن قضى في قبرص فصل الشتاء في الوقت الذي كانت الدولة الأيوبية في مصر والشام لا تزال تعاني الكثير من المتاعب بسبب المنازعات بين أمراء بني أيوب.

---

[1] إستيفن رانسمان: مرجع سابق، ص442.
[2] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص134.
[3] أحمد تمام: لويس التاسع يستعد لغزو الشرق، WWW. Islam on line.
[4] جوزريف نسيم: مرجع سابق، ص36-37.

وقد عاد هذا التأخير على الحملة بكثير من الأضرار إذ أضاع الفرنسيون وقتاً ثميناً دون أن يجنوا من ورائه شيئاً نافعاً، فقد استنفذوا كل موؤنتهم ولم يستطيعوا مغادرة الجزيرة إلا بعد تدبير الموؤنة اللازمة لهم من جديد، كما نفذت أموالهم التي كانوا قد جمعوها قبل سفرهم للصرف على أنفسهم في الشرق. وفي اثناء هذه الفترة أيضاً تسربت أخبار الحملة إلى سلطان مصر مما أتاح له فرصة الإستعداد لمواجهة الحملة بتحصين مدينة دمياط التي كان يتوقع هجومهم عليها وتزويدها بالمقاتلة والموؤن والذخيرة[1].

ثم اتجه لويس التاسع بإسطوله إلى دمياط فوصلها في أوائل يونيو 1249م* بعد رحلة بحرية شاقة بسبب هبوب العواصف بجموع عظيمة، وقد إنضم إليهم صليبيي الساحل كله وقد كان عدد وحداته البحرية نحو ألف وثمانمائة قطعة ما بين كبيرة وصغيرة وتحمل نحو خمسين ألف مقاتل من مشاة وفرسان بكامل معداتهم وسلاحهم وقوتهم وجنودهم وفي مقدمتهم الملك الفرنسي وأخويه شارل دي انجو وروبرت دي أرتوا وبلغ من كثرة السفن أنها كست البحر حتى لم يعد يرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء[2].

نزل الصليبيون أمام ساحل دمياط وأقيمت للملك الفرنسي خيمة حمراء وكان أول ما فعله الملك لويس التاسع أنه بدأ بحرب الأعصاب فكتب إلى الملك الصالح مهدداً متوعداً داعياً إياه إلى الإستسلام وقد جاء في رسالته كما رواها المقريزي (أما بعد: فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية وأني غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر نقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأثر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية ولو حلفت لي بكل الإيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة عليك فيدك العليا ممتدة إلي وقد

---

[1] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص328.

* انظر ملحق رقم (1) ص

[2] Edward Maslin: The middle Ages, London Muslim Street, PP 482.

عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء..)[1].

وقد كان الملك الصالح مهيباً عزيز النفس كثير الهمة عالي الأطماع ويروى أنه أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤددا بعد السلطان صلاح الدين، ولمّا وصلته رسالة لويس التاسع كان يعاني آلام مرض الموت فاغرورقت عيناه واسترجع وكتب الرد ألى لويس يندد بغروره ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين:(وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك – ايها المغرور – حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وإخرابنا منكم ديار الأوائل والأواخر لكان منك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسئ بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: (أتي أمر الله فلا تستعجلوه..) وكن فيه على آخر صورة ص: (ولتعلمن نبأه بعد حين) وتعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وإلى قول الحكماء (أن الباغي له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك. والسلام.)[2].

وكان الملك الصالح قد أسرع بالعودة إلى مصر لما بلغه من حركة الصليبيين بالرغم من إعتلال صحته محمولاً على الأكتاف في محفة وعسكر عند أشموم طناح كما ذكر من قبل ليكون في مقابلة الصليبيين إذا وصلوا إلى دمياط، فجعل في هذه البلدة الصغيرة معسكره الرئيسي لمواجهة الخطر وعزز دفاع دمياط التي كانت هدف الصليبيين في حملاتهم السابقة على مصر فأمر بشحنها بالذخائر والأقوات وآلات الحرب، ثم بعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي على يأمره بتجهيز السفن البحرية وإرسالها على وجه السرعة إلى دمياط، كما وضع فيها حامية من عرب بني كنانة وهم من البدو المشهورين بالشجاعة للدفاع عنها، كما أرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر في البر الغربي لدمياط حتى يكون في مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلى دمياط ليحول دون نزولهم إليها فعسكر تجاه المدينة

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص334.

[2] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص129-130.

وأصبح النيل بينه وبينها وهكذا أصبحت دمياط مهيأة لمقاومة حملة لويس التاسع المرتقبة[1].

وهكذا وصل لويس التاسع إلى دمياط ليجد المدينة طيبة التحصين وأمامها الجيش الأيوبي يحول دون نزول القوات الصليبية إلى البر فقرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط وبدأت عملية إنزال الجيش الصليبي فعلاً في 5 يونيو سنة 1249م، ولم تكن هذه العملية بالأمر اليسير إذ أن مياه الشاطئ كانت ضحلة بحيث اضطروا إلى ترك سفنهم الكبرى في عرض البحر وانتقلوا إلى البر في قواربهم الصغرى حيث ألقوا بأنفسهم في الماء وعلى رأسهم الملك لويس التاسع نفسه. فتصدى لهم الجيش الأيوبي ودار الصدام بين الفريقين وأسفر عن هزيمة مروعة للمسلمين لكثرة عدد الفرنجة، وكان الأمير فخر الدين قد قرر الإنسحاب فجأة من دمياط حينما أرسل بعض الخطابات عن طريق الحمام الزاجل إلى الملك الصالح نجم الدين ولم يتلق منه رداً، فظن أنه مات لاسيما وأن نجم الدين أيوب كان مريضاً لذلك أراد الأمير فخر الدين أن يكون قريباً من الأحداث ليستولي على السلطة فقد كان رجلاً كثير المطامع عريض الآمال لذلك إنسحب بجيشه وآثر الرحيل بسرعة وعبر النيل إلى دمياط في الجانب الشرقي، ثم غادر دمياط إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح[2].

ولما رأى أهالي دمياط إنسحاب الحامية العسكرية زلزل الرعب قلوبهم وساد القلق والإضطراب في حامية المدينة، ففروا هاربين بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم تاركين مدينتهم بما فيها بعد أن أشعلوا النار في سوق المدينة، بل أن بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح نجم الدين أيوب بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار أيضاً وتركوا أبواب المدينة مفتحة وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل[3].

وهكذا أصبحت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع فغدت لقمة سائغة في أيدي الصليبيين فدخلتها جيوش لويس التاسع في سهولة بالغة في 6 يونيو 1249م وبغير قتال أو إراقة دماء واستحوذوا على كل ما كان فيها وعندما ورد نبأ سقوطها إلى

---

[1] Phlip K.: history of The Arab, Pp 655.
[2] الشيال: مرجع سابق، ص124.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص335.

القاهرة إشتد الجزع وأيقن الجميع أن المملكة ضائعة لا محالة بين براثن الفاتحين الأجانب[1].

ويروي المقريزي ان الصليبيين عندما رأوا أبوابها مفتحة على هذا الشكل ولا أحد يحميها لم يصدقوا وخشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا في دخولها حتى أيقنوا خلوها من الناس فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤونة حصار واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة والعِدد الكثيرة والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك صفواً عفواً[2].

وهكذا سقطت دمياط في أيدي الصليبيين بعد أن دوخت الحملة الخامسة بمقاومتها الشرسة، ولم يصدق الصليبيون أنهم إنتصروا بهذه السهولة، وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل الذي سقط بين أيديهم دونما جهد حتى أخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة[3].

والواقع أن الحملة الصليبية السابعة صادفت نجاحاً كبيراً في الإستيلاء على دمياط إذا تذكرنا أن الحملة الخامسة بزعامة حنا دي برين لبثت أمام دمياط ثمانية عشر شهراً بذلت فيها جهدا شاقاً حتى تمّ لها الإستيلاء على المدينة.

ويقول المقريزي في هذا الصدد: (وقد كانت دمياط في أيام الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدد منها في هذه النوبة ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة وعندما فني أهلها بالوباء والجوع. وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغن ذلك شيئاً)[4].

والواقع أن الملك الصالح لم ينس أن هزيمة دمياط السابقة إنما كان سببها إنعدام الأقوات بعد طول الحصار فملأها بالجند والأقوات والآلات العظيمة والذخائر الوافرة[5].

وكان سقوط دمياط بتلك السهولة مصيبة لم يجر مثلها نظراً لقوة تحصيناتها فضلاً عن أهميتها في تجارة مصر، مما أغضب الملك الصالح غضباً شديداً وجعله يتلقى سقوط دمياط بمزيج من الألم والمرارة، فعاقب أمراء بني كنانة عقاباً قاسياً لفرارهم من دمياط

---

[1] جوزيف نسيم: مرجع سابق، ص41.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص336.
[3] قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص134.
[4] المقريزي: مرجع سابق، ص335.
[5] قدري قلعجي: مرجع سابق، ص528.

وإهمالهم الدفاع عنها، فأمر بشنقهم فشنقوا عن آخرهم بعد أن إستفتى الفقهاء فأفتوا بقتلهم فشنق ما يزيد عن خمسين من أمراءهم[1].

أما المماليك الأتراك وقائدهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذين لم يثبتوا أمام الصليبيين عند نزولهم إلى البر فقد وبخهم السلطان ونهرهم وقال لهم: (ما قدرتم تقضون ساعة بين يدي الفرنج ؟!) وقد تخوّف أولئك المماليك من نوايا السلطان الصالح أيوب وأرادوا قتله فقال لهم فخر الدين: (أصبروا عليه فهو على شفا.. فان مات فقد إسترحتم منه وإلا فهو بين أيديكم...)[2].

والواقع أن المرض لم يلبث أن إشتد على الصالح أيوب بحيث لم يعد يقو على النهوض من الفراش، فحُمل إلى قلعة المنصورة لأنها كانت تمتاز بموقع حصين فالنيل يحميها غرباً وبحر أشموم يفصل بينها وبين الصليبيين في الشمال، فوصلها في 8 يونيو 1249م وشرع الجند في تحصينها، ومنها بدأت المقاومة المصرية تتصاعد وبدأت حرب عصابات أسهم فيها المصريون المدنيون بجهد كبير إلى جانب القوات العسكرية، وظل هناك ينظم شئون الدفاع وأرسل إلى القاهرة يطلب الإمدادات ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة وتوافد على المدينة أفواج من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والمغرب الإسلامي بالإضافة إلى جموع العربان والجنود المتطوعة لمواجهة الخطر الداهم[3].

وفي تلك الأثناء كان الجيش الصليبي قد عاد إلى الضفة الغربية للنيل حيث عسكر في مواجهة دمياط وتوقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن وظلوا مقيمين هناك زهاء خمسة أشهر ونصف دون القيام بعمل حربي أو مواصلة التقدم نحو الجنوب لجني ثمار النصر الأول الذي أحرزوه. ولما أحس المسلمون بإستسلام الصليبيين إلى الجمود إستغلوا الوضع الجديد المكشوف للصليبيين وأخذوا يشنون غارات متتابعة على الصليبيين، هذا فضلاً عن العربان الذين أخذوا في الإغارة على الصليبيين ومناوشتهم بإغارات فدائية ليلية جريئة ومنح السلطان مكافآت ضخمة على كل رأس من رؤوس الصليبيين يأتيه به أحد رجاله وأسر من يمكن أسره من فرادى الصليبيين، وهؤلاء

---

[1] أبو الفداء: مصدر سابق، ج3، ص179.
[2] رانسمان: مرجع سابق، ص454.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص342.

الأسرى كانوا يرسلون تباعاً إلى القاهرة ليعرضوا في شوارعها بهدف رفع الروح المعنوية في أنحاء البلاد[1].

ويعطينا المقريزي الكثير من الأمثلة عن أسرى الصليبيين وأعدادهم التي كانت ترسل للعرض في شوارع القاهرة فيقول: (فلما كان يوم الإثنين سلخ شهر ربيع الأول 647هـ وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيراً منهم فارسان، وفي خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيراً، وفي سابعه وصل إثنان وعشرون أسيراً وفي سادس عشرة وصل خمسون أسيراً ...) هذا والأسرى من الفرنج تصل في كل قليل إلى القاهرة ومع ذلك المرض يتزايد بالسطان[2].

لم يهنأ الصليبيون بإستيلائهم على دمياط فقد إشتدت العمليات الفدائية والحرب الخاطفة ونجحت البحرية المصرية في حصار قوات الحملة وتدمير خطوط إمدادها في فرع دمياط، واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر منذ أن سقطت دمياط ويبدو أن تلك الإغارات بلغت درجة من الخطورة أزعجت لويس التاسع حتى أنه فرض حراسة مشددة حول المعسكر الصليبي يتناوبها الجند طوال الليل، وبدأ يستعد للتحرك من دمياط لا سيما بعد وصول المدد المنتظر بقيادة أخيه الفونس دي بواتيه في أواخر اكتوبر سنة 1249م، فعقد لويس التاسع مجلساً للحرب لتقرير خطة الزحف فاقترح معظم قواد الجيش وبعض زعماء الصليبيين أن يتجهوا نحو الإسكندرية لأنها مرفأ طيب يمكن أن تأوي إليه السفن ويكون التموين فيه سهلاً ويمكن السيطرة على السواحل المصرية من ناحية وقطع مصر عن العالم الخارجي وحرمانها من نشاطها التجاري من ناحية أخرى خاصة وأن الإسطول الصليبي سيتيح فرصة طيبة للصليبيين لإتمام هذه الخطوة بنجاح، ولكن البعض الآخر فضّل الزحف على القاهرة لطعن مصر في قلبها إذ أن الإستيلاء على القاهرة سيتبعه الإستيلاء على بقية المدن المصرية بحكم أنها حاضرة الدولة الأيوبية. وقد إنتصر الرأي الأخير فانتقل الصليبيون إلى الضفة الشرقية للنيل وشرعوا في الزحف على القاهرة في 20 نوفمبر 1249م، بعد أن ترك لويس التاسع في دمياط حامية قوية[3] *.

---

[1] جوزيف نسيم: مرجع سابق، ص43.

[2] المقريزي: مصدر سابق، ص337.

[3] Charles Oman: History of the Art of war in the middle ages. 36 Esset street w.c., london .pp54.

* أنظر الملاحق، ملحق رقم (2)، ص (180).

ولم يكد الصليبيون يشرعون في الزحف من دمياط جنوباً حتى توفي الصالح نجم الدين أيوب في المنصورة في 23 نوفمبر 1249م موصياً بالعرش لإبنه الملك العظيم توران شاه نائبه في البلاد الشرقية وكان يومئذ في حصن كيفا وديار بكر، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وكان حاكماً كفئاً ويعتبر آخر كبار رجال الأسرة الأيوبية العظيم، وقد أخفي موته مقدار ثلاثة أشهر والخطبة بإسمه إلى أن وصل ولده المعظّم توران شاه إلى المنصورة[1].

فرح الصليبيون بالنصر ولكنه كان فرحاً قصير الأمد فقد وجد الأيوبيون فرصة طيبة للإستعداد وإعادة تنظيم جيوشهم في تلك الفترة التي قضاها الصليبيون أمام دمياط منتظرين قدوم الفونس دي بواتيه ومعه الإمدادات التي طلبها لويس التاسع بينما خَبِر الصليبيون الديار المصرية جيدا وذلك عن طريق الإحتكاكات المباشرة والغير مباشرة الأمر الذي جعلهم يصرون على مواجهة الأيوبيين وهزيمتهم ولكن إذا تحقق لهم النصر أمام دمياط لمرض الصالح أيوب أو لأطماع الأمير فخر الدين في السلطنة فإنهم قد إنهزموا في فارسكور والمنصورة كما سنرى.

وعلى أية حال فإن حملة لويس التاسع علامة على أمرين متناقضين فقد كانت ذروة الحركة الصليبية من جهة كما كانت بداية النهاية لهذه الحركة من جهة أخرى. وقد كانت آخر مجهود كبير تبذله أوروبا عسكرياً ضد المسلمين، وكانت تلك الحملة أيضاً بداية النهاية بالنسبة للأيوبيين، وبداية ظهور الأهمية السياسية والعسكرية لفرسان المماليك الذين لم يلبثوا أن خلعوا سادتهم الأيوبيين وأخذوا الحكم في المنطقة لحسابهم.

[1] إبن خلكان: مصدر سابق، ج5، ص86.

الفصل الخامس

الصراع في عهد المعظّم تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية

648-650هـ/1250 – 1252م

- ✓ الدولة الأيوبية قبل تورانشاه
- ✓ السلطان تورانشاه والصراع مع الصليبيين
- ✓ مقتل تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية

الصراع الأيوبي الصليبي في عهد المعظّم تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية

لقي الصالح أيوب ربه في ليلة النصف من شعبان سنة 647هـ/ نوفمبر 1249م والقوات الصليبية تزحف جنوباً علي شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط للإجهاز علي القوات المصرية الرابضة في المنصورة، وكانت إذاعة خبر موت السلطان في هذا الوقت الحرج كفيلة بأن تضعف معنويات الجند وتؤثر في سير المعركة ولكن شجر الدر* وقفت موقفاً رائعاً تعالت فيه علي أحزانها فأخفت خبر موت السلطان وأرسلت إلي تورانشاه إبن الصالح أيوب تحثه علي القدوم من حصن كيفا ليتولي السلطنة بعد أبيه.

وصل تورانشاه إلي المنصورة وتسلم مقاليد الإمور وتولى قيادة الجيش بنفسه وتمكن من تحقيق النصر بمعاونة مماليك أبيه في فارسكور وأسر الملك الصليبي وسيق مكبلاً بالأغلال إلي المنصورة حيث سجن في دار "إبن لقمان".

لم يحسن تورانشاه معاملة المماليك البحرية وتنكر لشجرالدر وأساء معاملتها وتهددها، فقرر المماليك قتله ونجحوا في ذلك وبمقتله إنتهت الدولة الأيوبية وبدأ عصر جديد هو عصر المماليك.

* أرمنية الأصل وقيل تركية الجنس بعثها الخليفة العباسي المستعصم بالله من بغداد إلى نجم الدين أيوب في القاهرة وجعلها في حريمه ولما إعتلى نجم الدين عرش السلطنة أعتقها وتزوجها وولدت إبناً إسمه خليل مات صغيراً/ ناصر الأنصاري: مرجع سابق، ص157.

الدولة الأيوبية قبل تورانشاه

جاءت وفاة الصالح أيوب في عام 1249م في أصعب الأوقات، فقد كان الصليبيون يحتلون دمياط ويعملون بقدر طاقاتهم علي العبور إلي الجانب الشرقي والتوجه إلي القاهرة، وبالطبع كانت وفاة السلطان في تلك الظروف الحرجة تعني الإضطراب داخل معسكرات الجيش كما أنها خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي. وزاد الحال سوءاً أن الملك الصالح أيوب لم يعهد بالسلطة إلي أحد من بعده بل قال لنائبه الأمير حسام الدين بن علي: "إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله* ليرى فيها رأيه"[1].

وبذلك يتضح مدى الفوضي والإضطراب الذي كان ينتظر البلاد في الوقت الذي كان يتطلب وجود حاكم قوي خاصة وأن الخلافة العباسية والخليفة المستعصم كان من الضعف بحيث لا يقدر علي تسيير الإمور داخل بغداد فما بالنا بمصر وما يحيط بها من أحداث!!.

والمعروف أنه كان للصالح أيوب أربعة أولاد منهم واحد علي قيد الحياة هو المعظّم تورانشاه عند وفاته وكان والده الصالح يعرف ما به من الهوج وقد أجمعت المصادر التاريخية على أنه كان به نوع من الخفة هذا بالإضافة إلي أن تورانشاه كان يكره طائفة المماليك البحرية وهي الفرقة الجديدة التي أنشأها الملك الصالح. لذلك فضّل إبعاده عن مصر والشام وأنابه في حكم كيفا وديار بكر[2].

وإزاء صعوبة الموقف في مصر والشام عقب وفاة الصالح أيوب كان لا بد من القيام بعمل سريع لضبط الإمور خشية إنهيار الجيش المصري أمام الصليبين. وقد قامت شجر الدر بدور عظيم خلده لها التاريخ تعالت فيه علي أحزانها فأخفت خبر موت زوجها خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين بحيث لم يعلم بذلك الخبر سوى الطواشي جمال الدين محسن وقد كان أقرب الناس إلى الصالح أيوب وكان يتولى الإشراف على المماليك وكان حكمه نافذاً عليهم وعلى سائر أفراد الحاشية والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فكتموا ذلك خوفاً من الصليبيين وكان فخر الدين عاقلاً مدبراً

---

* هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن الظاهر بن الناصر بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في 6 ديسمبر سنة 1242م ولم يزل خليفة إلى أن قتل على يد هولاكو في يناير 1258م وبقتله إنتهت الخلافة العباسية/ الشيخ محمد الخضري: الدولة العباسية، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1998، ص441.

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص342.

[2] ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص364.

جديراً بالملك جواداً محبوباً إلي الناس فاتفقوا علي تدبير شئون المملكة إلي أن يقدم الملك المعظّم تورانشاه ليعتلي عرش البلاد خلفاً لأبيه. واستمر كل شئ في سيره الطبيعي كأن شيئاً لم يحدث، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم أن السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده المعظّم تورانشاه المقيم بحصن كيفا وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر وتدبير المملكة فأجابوها إلى ذلك، وكتبت إلى حسام الدين إبن أبي علي وهو النائب بمصر بمثل ذلك فحلف الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر والقاهرة علي ذلك[1].

ثم أرسلت قائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاي الصالحي كبير المماليك البحرية لإحضار المعظّم تورانشاه علي عجل من حصن كيفا بالقرب من حدود العراق ليعتلي السلطنة خلفاً لأبيه. وفي نفس الوقت سارت الإستعدادات الخاصة بالدفاع سيراً طبيعياً واستمرت الكتب والمراسيم تخرج بتوقيع السلطان المتوفي كأنه حي علي قيد الحياة، وكان يكتبها خادم يقال له سهيل فلا يشك من رآه أنه خط السلطان[2].

لم تفلح محاولات شجر الدر في إخفاء خبر وفاة السلطان طويلاً ورغم كل الإحتياطات فقد تسرب خبر الوفاة إلي الصليبين إذ تراءى لهم أن هذه الحكومة المؤلفة من امرأة وقائد كهل لن تلبث أن تنهار، فسارعوا في التحرك وعمل لويس جاهداً علي مهاجمة معسكر المسلمين منتهزاً فرصة إضطراب الإمور في ذلك الوقت ليتمكن من إنزال ضربته قبل وصول المعظّم تورانشاه. وخرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم وزحفوا جنوباً علي شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط حتي وصلوا إلي قرية فارسكور في الثاني من ديسمبر سنة 1249م دون أن يلقوا في طريقهم أي مقاومة عسكرية عدا صعوبات الزحف الحربي وهي صعوبات لا بد منها بعد إنتهاء موسم فيضان النيل بمدة طويلة. فلما وصلت أخبار نزول الصليبين بفارسكور إلي معسكر المنصورة سارع الأمير فخر الدين لإبلاغ القاهرة بتلك الأخبار وأرسل رسالة يحض فيها الناس جميعاً علي الجهاد إفتتحها بالآية القرآنية الكريمة: (أنفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وجَاهِدُوا بِأموالِكُم وأنفُسِكُم فِي سَبِيلِ الله ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلَمُون)[3] وقرئت تلك الرسالة علي الناس في صلاة الجمعة بالجامع الأزهر الشريف، وكان لهذه الرسالة أثرها البالغ إذ أوضحت للناس ضرورة

---

[1] أبو الفداء: مصدر سابق، ص108.
[2] عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ج 2، ط 5، مؤسسة الرسالة، 1984، ص86.
[3] القرآن الكريم: سورة التوبة، الاية41.

تقديم كل المساعدات الممكنة للقوات المصرية المدافعة عن المنصورة حتي تستطيع هذه القوات المقاومة والثبات ضد الزحف الصليبي وقد حوت الرسالة مواعظ كثيرة وحصل عند قراءتها من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف وارتجت القاهرة ومصر لكثرة إنزعاج الناس وحركتهم للمسير فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم. وقد إشتد كرب الناس من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد مع موت السلطان[1].

وكان موقف الأمير فخر الدين هذه المرة علي النقيض من موقفه السابق في دمياط ولعله أراد أن يكفر عنه فأخذ يستعد لمواجهة الفرنج وقد أقام في المنصورة ومنها أخذ ينظم هجمات مفاجئة ضد الصليبين في زحفهم لعرقلة ذلك الزحف ومن هذه الهجمات ما حدث في 7 ديمسبر سنة 1249م من قيام ستمائة فارس من الجيش الأيوبي بمهاجمة الصليبين بين فارسكور وشرمساح وحلت الهزيمة بالمسلمين وقتل بعض أمرائهم ومع ذلك فقد نجح المسلمون في أسر أعداد كبيرة منهم حتي أنهم أسروا في ليلة واحدة خمسين أسيراً وهؤلاء كانوا يرسلون إلي القاهرة أولاً بأول.[2]

تقدم الصليبيون في زحفهم واختاروا أن يسلكوا طريق الدلتا* وهو طريق كثير الترع والقنوات وسارت إلي جانبهم بعض سفنهم في النيل تحمل إليهم المؤن من دمياط فمروا بشرمساح والبرامون، فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالاً شديداً لدنوهم وقربهم ثم واصل الصليبيون سيرهم حتي نزلوا قبالة الجيش الأيوبي بحيث لم يكن يفصل بين الجيشين الأيوبي والصليبي سوي بحر أشموم طناح فكانت هذه أول عقبة إصطدمت بها الحملة منذ قيامها، ذلك أن فرع دمياط ينقسم شمال المنصورة إلي فرعين يتجه أحدهما إلي دمياط وينحرف الآخر في إتجاه شمالي شرقي حيث يمر بمدينة أشموم طناح إلي أن يصب في بحر أشموم الذي يعرف اليوم بالبحر الصغير، وبدأوا يحصنون معسكرهم فحفروا حوله خندقاً وابتنوا سوراً وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها علي معسكر المسلمين وأنزلوا شوانيهم بإزائهم في نهر النيل بينما وقفت الشواني الإسلامية

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص346 – 347.
[2] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1066.
* أنظر ملحق رقم () صفحة ()

أمام المنصورة. وبدأ المعسكر الصليبي وكأنه جزيرة حصينة مسورة يحيط بها الماء من جميع الجهات وسرعان ما وقع القتال بين الطرفين براً وبحراً[1].

ومع ذلك لم يعدم المسلمون وسيلة لمهاجمة الصليبيين وكانوا يتحيلون في خطفهم بكل حيلة من ذلك أن شخصاً أخذ بطيخة وأدخل فيها رأسه وغطس في الماء حتى اقترب من الصليبيين فظنوه بطيخة فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها فإختطفه المسلم وعام به أحدهم في الماء حتى قدم به إلى المسلمين[2].

وتطورت الحرب بين الطرفين إلى مناوشات وصفها المقريزي بقوله: (وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر ولقد لقوا من عامة المسلمين وسؤابلهم نكاية عظيمة وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم في الماء وسبحوا إلى أن يصيروا في بر المسلمين، وفي الثالث عشر من يناير 1250م إستولى المسلمون على شينياً وهو نوع كبير من السفن الحربية في مصر فيه نحو مائتي رجل من الصليبيين على رأسهم كونت كبير. وهاجمت قوة إسلامية المعسكر الصليبي وقتلوا أربعين فارساً وعدداً كبيراً من خيلهم كما أسروا سبعة وستون أسيراً منهم ثلاثة من أكابر الداوية، كما أحرقوا للفرنج مرمه عظيمة في البحر واستظهر المسلمون عليهم إستظهاراً عظيماً)[3].

وكان المسلمون يتخطفون الغزاة أحياء ويتصيدونهم بالنبال واستمر ذلك شهرين كاملين فهال الأمر لويس التاسع وخشي أن يقوض القلق والإنتظار من عزيمة الجند وحماستهم للقتال وأيقن بأنه لن يستطع التغلب على المسلمين إلا إذا إلتحم معهم في معركة فاصلة تحدد مصير الحملة الصليبية، وقرر بناء جسر على بحر أشموم كي تعبر عليه قواته إلى المعسكر الإسلامي في المنصورة وبدأ في تشييد هذا الجسر ولكن الفرنج لم يكادوا يكملون بضعة أمتار من الجسر إلا وتعرضوا لوابل من قذائف المجانيق بالإضافة إلى قذائف النار الإغريقية التي أنزلت الرعب في قلوب الصليبيين كما أمر بإقامة برجين من الخشب لحماية العمال أثناء قيامهم ببناء الجسر ولم تكن مهمتهم سهلة تحت هذا السيل من الأحجار والقذائف الملتهبة التي أخذ يمطرهم بها المسلمون وقد أفلحوا في تحطيم كل ما أعده الصليبيون للهجوم الحاسم[4].

---

[1] إبن تغري بردي: مرجع سابق، ص364.
[2] العبادي: مرجع سابق، ص238.
[3] المقريزي: مصدر سابق، ص348.
[4] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص138.

واجهت لويس التاسع كثير من الصعاب عندما وجد نفسه شبه محصور في تلك المنطقة لا يستطيع العبور إلى المنصورة والجيش المصري الأيوبي قادراً على توسيع مجرى بحر أشموم طناح من الناحية الجنوبية بقدر تضييقه من ناحية الصليبيين، وكما أنهم أمامهم على الضفة الأخرى للنهر تتزايد أعدادهم وتكتمل إستعداداتهم يوماً بعد يوم.

وفي 8 فبراير سنة 1250م أخذ الصليبيون يعبرون بحر أشموم عن طريق مخاضة إسمها مخاضة سلمون دلّهم عليها أهل بلدة سلمون وغالبيتهم من غير المسلمين فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم في المعسكر فانتشر الزعر بين الجند[1].

فرح الصليبيون بهذا الكشف الذي سيمهد لهم الطريق إلى العاصمة وعقد الملك مجلساً تقررت فيه خطة الهجوم على المنصورة ومنها يواصل الجميع تقدمهم إلى القاهرة، وتوجه الجيش الصليبي إلى المخاضة يتقدمه الدليل وكانت عملية العبور شاقة وبطيئة نظراً لعمق المخاضة وعندما وصلت طليعة الجيش إلى الضفة الجنوبية وشنت هجوماً خاطفاً على المصريين في معسكرهم مكبدة إياهم خسائر فادحة في الأرواح وشتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال وعندما سمع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأنباء الهجوم الصليبي على المعسكر الإسلامي بالمنصورة و سارع بالخروج وركب فرسه من غير إعتداد ولا تحفظ ليأمر الجند المصري بالركوب للقتال وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده غير أن جماعة من الصليبيين أحاطوا به ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه فطعنه أحدهم برمح في جنبه فسقط عن فرسه فتكاثروا عليه وقتلوه مثخناً بالجراح واستولوا على معسكر المسلمين بقرية جديلة فكان ذلك خسارة فادحة للجيش الأيوبي في تلك الظروف، حيث شتت شملهم ولجأ أكثرهم إلى داخل المنصورة يحتمون بأسوارها من سيوف الأعداء واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت دي أرتوا المنصورة متغفياً الجنود المصريين ليقضي عليهم دون تقدير لعواقب الإمور وواصل هجومه في فصائل صغيرة مبعثرة داخل المدينة وخيّل إليه أن المعركة لا تعدو جولة أو جولتين ثم تستسلم المنصورة كما أستسلمت دمياط من قبل[2].

---

[1] جوزيف نسيم: مرجع سابق، ص49.

[2] سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق ونشر الغامدي، مكة، 1987م، ج 2، ص516.

وهكذا أوغل فرسان الصليبيين داخل المنصورة ظانين أن النصر صار بين أيديهم حقيقة لا خيالاً واطمأنت نفوسهم إلى هذا النجاح والظفر وأنقض المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقداري على الصليبيين وهم في نشوتهم وغرورهم وذلك في فبراير 1250م فدرات رحى معركة طاحنة سرعان ما أصبحت ملحمة بشرية كان مقدراً لها أن تقرر مصير مصر أو مصير الحملة الصليبية السابعة فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة وأوسعهم المماليك قتلاً وإهلاكاً. وكان بيبرس قد أصدر أوامره بتطويق الجيش الصليبي وتدميره ومطاردة ملوكه في كل أنحاء المنصورة وقد أسهم أهل المنصورة في هزيمة الصليبيين فقد تعقبوا فلولهم في الشوارع والأزقة وأخذوا يرمونهم بالقذائف والحجارة والطوب. فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم وكان على رأس القتلى روبرت أرتوا نفسه الذي لقي جزاء تهوره واندفاعه فضلاً عن عدد كبير من أمراء الصليبين[1].

وهكذا كانت معركة المنصورة* مقبرة الجيش الصليبي أو كما قال المقريزي" أول إبتداء النصر على الفرنج"[2].

وفي اليوم التالي لمعركة المنصورة عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش المصري مجلس الحرب عرض فيه على ضباطه معطف الكونت أرتوا(Artoi) ظناً منه أنها سترة الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور مبرراً بذلك قوله: "أن شعباً بدون ملك جسم بلا رأس لا يخشى منه خطر وعلى ذلك أعلن أنه سيهاجم الجيش الصليبي بلا تردد"[3].

أما لويس التاسع فقد جزع لتلك الصدمة ولكنه تمالك نفسه فأقام جسراً عظيماً من الصنوبر عبر عليه النيل مع رجاله ليتدارك الموقف، غير أن الروح المعنوية التي أثارتها موقعه المنصورة (8 فبراير سنة 1250م) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذي أحرزه المسلمون وقد قرر المسلمون خوض معركة حاسمة ضد الصليبيين، فوضع القائد بيبرس البندقداري خطة الهجوم على المعسكر الصليبي وهي خطة تدل على مهارته وكفاءته الحربية إذ قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام؛

---

[1] قدري قلعجي: مرجع سابق، ص543.

* أنظر ملحق رقم (4)، ص.

[2] المقريزي: مصدر سابق، ص351.

[3] أحمد تمام : www.islamonline .

القسم الأول عبارة عن جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة بلغت عدتها أربعة آلاف ومن خلفهم القسم الثاني المكون من المشاة والرماة أما القسم الثالث فكان عبارة عن جموع إحتياطية هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا إقتضت الضرورة ذلك. أما الجيش الصليبي فكان تنظيمه على أساس ميمنة وقلب وميسرة قاده لويس التاسع بنفسه وأبدى ضروباً رائعه من البطولة والشجاعة وثبت في المعركة حتى أضطر المسلمون إلى التراجع نحو المنصورة بعد أن تركوا أثقالهم وكثيراً من الغنائم ومع أن الصليبيين أحرزوا النصر إلا أنه كلفهم ثمناً باهظاً[1].

وبالرغم من الإنتصار الذي أحرزه الصليبيون فإنه كان يحمل بين طياته بواعث الهزيمة، فهم لم يظفروا بحلمهم المنشود في الإستيلاء على المنصورة والتقدم جنوباً نحو القاهرة كما فقدوا عدداً لا يستهان به من فرسانهم ومشاتهم وحطم المصريون معظم معداتهم وعتادهم مما أضعف قواهم وساهم إلى حد كبير في التعجيل بالنهاية الأليمة التي منيت بها هذه الحملة[2].

وعلى الرغم من شجاعة لويس التاسع وثباته إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً في سرعة واضحة بعد أن قلت المؤن وفقدوا نسبة كبيرة من فرساهم في معركة المنصورة ثم جاء إنتشار الأمراض والحميات في معسكرهم ليزيد الحال سوءاً[3].

وبذلك تنتهى معركة المنصورة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء في مراكزهم وأن عليهم الإنسحاب إلى دمياط قبل فوات الأوان.

---

[1] ستيفن رانسمان: مصدر سابق، ص462.
[2] جوزيف نسيم: مرجع سابق، ص47.
[3] العبادي: مرجع سابق، ص240.

السلطان المعظّم تورانشاه والصراع مع الصليبيين

وصل المعظّم تورانشاه إلى المنصورة من حصن كيفا ومعه خمسون من خاصته في نهاية فبراير سنة 1250م فتولى مقاليد الملك وكان في الخامسة والعشرين من عمره وفيه صلابة وصلفاً وكبرياء، وكان عهده في الحكم قصيراً جداً لم يزد على خمسة أسابيع ولكنه شهد إنتصاراً عظيماً أحرزه المسلمون على الصليبيين لم يسبق لهم أن أحرزوا مثيلاً له منذ إنتصار حطين فأدى وصوله إلى إرتفاع الروح المعنوية عند المصريين ونزل السلطان المعظّم تورانشاه في قصر أبيه وأعلنت شجر الدر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته بل كانت الإمور على ما كانت عليه في أيام حياته وشجر الدر تدبر إمور الدولة كلها وتقول: (السلطان مريض ما إليه وصول) إلى أن إستقر الملك المعظّم بالصالحيه وتسلم مقاليد الإمور[1].

وكان أول ما فعله تورانشاه أن تولى قيادة الجيوش المصرية بنفسه وبدأ يستعد لتوجيه الضربة القاضية للصليبيين الذين أصبحوا يشرفون على ضفتي النيل بدمياط وبدأ في إعداد خطة لإجبار لويس التاسع على التسليم وخلاصتها أن يقطع على الصليبيين خط الرجعة كما فعل جده الكامل من قبل مع حنا دي برين أثناء الحملة الصليبية الخامسة وكما أوصاه أبوه الصالح أيوب في وصية تركها قبل وفاته والتي يقول فيها: (..... وهذا العدو المخذول (الفرنج) إن نزلوا منزلة من تقدمهم قبالة المنصورة فرتب العسكر يكونوا ثابتين خلف الستائر على البحر ليلاً ونهاراً فهم مالهم زحف إلا بالشواني فقوا الشواني كيفما قدرتم واجتهدوا أن تكون بعض الحراريق على بحر المحلة من خلف مراكبهم تقطع عليهم الميرة وهو يكون أن شاء الله سبب هلاكهم فتلك المرة ما إنتصر الشهيد رحمه الله إلا من بحر المحلة ...)[2].

وتنفيذاً لتلك الوصية تلخصت خطة تورانشاه في التحول عن متابعة الهجوم البري على مواقع الصليبيين إلى خطة نهرية محورها تجويعهم في معسكرهم بقطع مواصلاتهم في النيل مع دمياط. وتنفيذاً لهذه الخطة أمر السلطان سحب عدد من المراكب المصرية الراسية قريباً من موقع الأحداث ثم تفكيكها لتحمل على ظهور الجمال إلى بحر المحلة، وطرحوها فيه وملأؤها بالمقاتلة وسارت شمالاً إلى مصب البحر في النيل حتى تكون

---

[1] سبط بن الجوزي: مصدر سابق، ص514.
[2] إبن كثير: مصدر سابق، ج12، ص363.

خلف الخطوط الصليبية في النيل حيث كمنت للسفن الصليبية وقطعت خطوط الإمداد عن الصليبيين في المنصورة وحالت دون إتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط حيث المدد والزاد[1].

وبهذه الوسيلة تمكنت الأساطيل المصرية من مهاجمة كثير من السفن الصليبية المحملة بالمؤن والأقوات، وكانت إثنين وخمسين سفينة صليبية فاستولت عليها وأسرت من فيها وحملتهم على الجمال إلى المعسكر الإسلامي فإنقطع المدد عن دمياط وأدى هذا إلى سوء الحال بالصليبيين وحلول المجاعة بمعسكرهم وتفشى الأمراض والأوبئة بين الجنود ووقع الغلاء عندهم وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم[2].

لقد كان الصليبيون في موقف لا يحسدون عليه وأخذ حالهم يزداد سوءاً كلما تقدمت بهم الأيام فقد كان في بقائهم بمراكزهم جنوبي بحر أشموم هلاكهم وفي تراجعهم إلى قاعدتهم دمياط في هذه المرحلة خطر داهم عليهم، فأدرك الملك لويس أنه لابد أن يبذل كل ما في وسعه لأن يخلص الجيش من المعسكر وفساد هوائه وأن يتقهقر إلى دمياط أملاً في النجاة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه المحنة وأعد نفسه ليدخل في مفاوضات مع المسلمين فأضطر إلى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة وسألوه أن يسلموا دمياط ويأخذوا عوضاً عنها مدينة القدس وبعض المدن الساحلية بالشام فلم يجابوا إلى ذلك وأصر الأيوبيون على مواصلة الجهاد، ولم يبق أمام لويس سوى أن يسوق رجاله ويرجع من حيث أتى تحت جنح الظلام بعد أن فنيت أزوادهم وأنقطع عنهم المدد من دمياط وأصبح واضحاً لديهم أن النهاية قد إقتربت. وفعلاً إستعد الصليبيون للإنسحاب في الخامس من أبريل 1250م فرفع المعسكر وبدأت الرحلة المثيرة للأسى والألم وقد حرصوا على إشعال النار فيما عندهم من أخشاب حتى لا ينتفع بها المسلمون وأتلفوا مراكبهم وشرعوا في الإنسحاب إلى دمياط[3].

لم تكن عملية الإنسحاب في تلك الظروف سهلة إذ أدرك لويس أن جيشه سيتعرض لمطاردة قاسية من المسلمين ربما أطاحت به وبحملته، كما أن الصليبيين لم يتريثوا في أثناء الإنسحاب فتعجلوا أمرهم وسهوا عن قطع الجسر الذي شيدوه على بحر أشموم

---

[1] المقريزي: مرجع سابق، ص353.
[2] الحنبلي: مصدر سابق، ص238.
[3] أبوالفداء: مصدر سابق، ص181.

طناح وتركوه سليماً فاغتنم المسلمون هذه الفرصة وعبروا الجسر خلف الصليبيين وبذلوا فيهم سيوفهم واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب وأنقضوا عليهم إنقضاض الصاعقة فقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم، وأبلى المماليك البحرية الصالحية* ولا سيما أقطاي وبيبرس البندقداري في فارسكور بلاءاً حسناً وحلت بالصليبيين عند فارسكور الكارثة الأخيرة، لذلك لجأ لويس التاسع إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس. وقد أراد لويس التاسع بهذا العرض أن يسترد بيت المقدس في الوقت الذي شعر بعجزه عن الإحتفاظ بدمياط ثم ليضمن لنفسه ولجيشه إنسحاباً آمناً سليماً من مصر دون أن يتعرض لمطاردة المسلمين وأذاهم. ولكن العرض جاء متأخراً بعد فوات الأوان فقد جاء في وقت أصبح معروفاً فيه للمسلمين ما يعانيه الصليبيون من ضعف وعناء ونقص في الأقوات، ولذلك رفض تورانشاه الطلب قائلاً: (إن بيت المقدس وكل شبر من أرض الإسلام هي أرضنا لا نفرط فيها قط وأنتم في مكانكم الآن لا ينبغي أن تنساقوا وراء خيالاتكم وأوهامكم بل يجب أن تفتحوا أعينكم جيداً على حقيقة الموقف الذي تعانونه الآن إنكم مقضى عليكم ولا شك ولكني مع ذلك – رعاية للسلام وحفظاً للدماء – أعرض عليكم الجلاء فوراً عن بلادنا بحيث تحملكم سفنكم إلى بلادكم دون غيرها، فإذا قبلتم فحسناً فعلتم وإذا أبيتم فالسيف حكم ينا وبينكم"[1].

وانقطعت بذلك المفاوضات وتابعت القوى المصرية ملاحقة الصليبيين حتى تولاهم اليأس من مواصلة الحملة للإستيلاء على القاهرة كما كانوا يحلمون وبدأوا بالإنسحاب في يأس غامر وذعر قاتل في أبريل 1250م وكان المماليك قد عبروا خلفهم وساروا على أعقابهم يهاجمونهم من كل ناحية[2].

ورغم الصعوبات الكثيرة التي نزلت بهم من جراء هجمات المماليك إلا أن لويس التاسع أظهر كفاية واضحة في تنظيم صفوف الصليبين حتى وصلوا إلى شارمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط[3].

---

* هم المماليك الأتراك الذين اشتراهم الصالح نجم الدين ايوب وأكثر من شرائهم لدرجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم وبنى لهم في 1241م قلعة خاصة في جزيرة الروضة وأسكنهم بها وزودها بكثير من الأسلحة والات الحرب والموؤن والغلال/ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، 1967، ص24.

[1] إبن تغري بردي: مصدر سابق، ص365.

[2] المقريزي: مصدر سابق، ص355.

[3] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص1073.

وأخذت الأحوال تسوء بالصليبيين نتيجة قلة المؤن والأغذية مما أدى إلى إرتفاع الأسعار، بالإضافة إلى إنتشار الأمراض والأوبئة وما تبعه من فساد الأسماك نتيجة تلوث مياه النيل لكثرة ما ألقى به من جثث القتلى، ولم تكد مقدمة الجيش الصليبي تصل إلى فارسكور حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه والمسلمون يطاردونهم ويهاجمونهم ويتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً حتى تبعثرت الحملة الصليبية السابعة رمماً وأشلاء ممزقة وكان الناجون من سهام المسلمين وسيوفهم يتساقطون في الطريق عناءاً ومرضاً وجوعاً. وكان الصليبيون أضعف من أن يقاوموا ويصمدوا في وجه القوى المحيطة بهم فوقع الجيش الصليبي بأسره بين قتلى وأسرى[1].

وعندما تأكد المسلمون من سوء موقف الصليبيين إختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور وكان لويس التاسع قد إشتد به الإعياء والمرض فلم يقو على القتال وقاده أحد رجاله ليستريح في منية أبي عبد الله. وفي المعركة التي دارت بين المسلمين والصليبيين حلت الهزيمة بالصليبيين ووقع الجيش الصليبي بين أسرى وقتلى وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذي سيق مكبلاً بالإغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان وعهد إلى الطواشي صبيح المعظمي بحراسته[2].

ويروي إبن تغري بردي أن لويس بقي في دار بن لقمان مكرماً غاية الكرامة وأن تورانشاه أرسل إليه خلعة ولكنه رفض أن يلبسها كما أقام له دعوة عظيمة فأمتنع الملعون أيضاً عن حضورها وقال: (أنا ما آكل طعامه وما يحضرني الا ليهزأ بي عسكره ولا سبيل إلى هذا).

وقد إعتقل مع لويس التاسع أخواه شارل كونت أنجو والفونسو كونت بواتيه، وتقدم أمر المعظّم لسيف الدين يوسف بين الطودي بقتل الأسرى من الفرنج وكان سيف الدين يخرج كل ليلة منهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة ويضرب أعناقهم ويرميهم في البحر حتى فنوا بأجمعهم[3].

وبلغت عدة القتلى عشرة آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر وأسر من خيّالة الفرنج ورجالهم المقاتلة ما يناهز مائة ألف شخص، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة وأستشهد من المسلمين نحو مائة رجل وأبلت

---

[1] Edward Maslin, Pp482

[2] احمد عبد الرازق: مرجع سابق، ص246.

[3] إبن تغري بردي: مصدر سابق، ص367.

الطائفة البحرية لا سيما بيبرس البندقداري في هذه المرة بلاءاً حسناً حتى أطلق بن واصل عليهم (داوية الإسلام) إشارة إلى ما صار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية عند الصليبيين[1].

سر تورانشاه بهذا النصر وأخذ يجري مفاوضاته مع الصليبيين وعرض عليهم الحصول على بعض الممتلكات الصليبية في بلاد الشام ولكن لويس أجاب بأن لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم في الشام وأن تلك الجهات إنما تتبع للإمبراطور فردريك الثاني وليس من حقه التنازل عن بلاد ليست ملكاً له وأنه أسيرهم ولهم أن يفعلوا به مايريدون[2].

إغتاظ تورانشاه لموقف الملك الفرنسي فصمم على غزو الشام كما غالى في شروط الصلح من الصليبيين فطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي* نفسه.

وقد وافق لويس على تلك الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين تورانشاه تقضي بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وأقسم الطرفان على إحترام شروط الصلح. وتم الجلاء عن دمياط[3].

وعلى هذا النحو السيئ وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها الفاشلة فيما بين المنصورة وفارسكور ووقع رجالها ما بين قتيل وأسير وقد كانت هذه الحملة أخر جهد أوربي كبير ضد الأيوبيين على المستوى العسكري بيد أنها لم تكن آخر تلك الجهود على أية حال. وقد حقق الأيوبيون فيها نصراً كبيراً ولكنه كان نصراً فارغاً بالنسبة إلى خلفاء صلاح الدين فبعد عام واحد من إنزال الهزيمة بالصليبيين خسر الأيوبيين سيطرتهم على مصر واضطروا إلى الإكتفاء ببعض المملكات الصغيرة المتناثرة في سوريا والعراق. ومن ناحية أخرى فإن الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت أثناء تلك الحملة كانت بمثابة الصرخة التي تعلن الوفاة التاريخية للدولة الأيوبية، كما كانت في الوقت نفسه صرخة الميلاد التي أعلنت ميلاد دولة عسكرية جديدة قادرة هي دولة

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ص356.
[2] إبن كثير: مصدر سابق، ص467.
* أنظر ملحق رقم ()، ص
[3] مصطفى زيادة: مرجع سابق، ص206.

سلاطين المماليك التي حكمت المنطقة العربية على مدى مايزيد على مائتي وسبعين سنة.

والواقع أن الحملة الصليبية السابعة آخر الحملات المنظمة على المشرق العربي الإسلامي، ومن المصادفات أن يرافق نهايتها وفشلها مقتل تورانشاه ونهاية الدولة الأيوبية في مصر.

مقتل تورانشاه وسقوط الدولة الأيوبية 1250 – 1252م

بعد أن تخلص تورانشاه من مشكلة الحملة الصليبية ورد العدوان الصليبي وألحق بالصليبين الخسائر الفادحة وأنتهى أمر الحملة بأسر لويس التاسع نفسه ووقوع رجاله بين قتيل وأسير رحل تورانشاه من المنصورة إلى فارسكور وأخذ في تنظيم الدولة متخبطاً في سياساته وذلك لعدم خبرته واعتماده على مجموعة من الأمراء ضعاف الرأي، وضرب بفارسكور الدهليز السلطاني وعمل فيه برجاً من خشب وأقام على لهوه وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتاباً بخطه نصه: (من ولده تورانشاه الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها. نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الله، فإنه كان قد إستفحل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا لا تيأسوا من روح الله، ولما كان يوم الثلاثاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق، فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل وحلّ بهم الخزي والويل فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقي نفسه في اللجج وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمنّاه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقدرته وجلاله وعظمته)[1].

على أن الشئ الذي يؤسف له حقاً هو شعور الأيوبيين بزوال خطر الصليبيين قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم فأضطرمت المنازعات الداخلية وحيكت المؤامرات السياسية التي أدت إلى زوال دولة وقيام أخرى وذلك أن تورانشاه كره المماليك البحرية وأنه إرتاب في المماليك البحرية الصالحية وتوجس خيفة من نفوذهم فأعرض عنهم وقرّب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع إضطهاده ووعيده[2].

---

[1] المقريزي: مصدر سابق، ج1، ص356 – 357.
[2] العبادي: مرجع سابق، ص111.

وأخذ يتخلص من كبار قواد الدولة فأخرج الملك المقيث فتح الدين عمر بن العادل من قلعه الجبل إلى قلعه الشوبك واعتقله بها، وأخرج السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل من مصر إلى دمشق فلما وصلها قبض عليه جمال الدين بن يغمور واعتقله، وأرسل في إستدعاء الأمير حسام الدين بن أبي على نائب السلطنة في القاهرة وأقام مكانه في نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، ولم يقتصر تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار دولته وبدلاً من إعترافه بالجميل الذي أسدوه إليه في صدّ الصليبيين عن البلاد وحفظ عرشه لحين حضوره صار يبدئ في كل أعماله إنعدام الثقة نحوهم وأخذ يهينهم ويتوعدهم بل تنكر لشجر الدر وأساء معاملتها وتهددها وطالبها بمال أبيه فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شئون الحرب وتدبير إمور الدولة، ويقال أنها داخلها منه خوف شديد فمضت إلى القدس حيناً من الزمن مخافة غدره، كما كتبت إلى البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التي أدتها له وقت غيابه عن مصر[1].

كما أساء معاملة المماليك البحرية وبدلاً من أن يعترف بالجميل لهم جميعاً حسدهم على مكانتهم التي بلغوها بفضل الله ثم بشجاعتهم وبأسهم وبدلاً من أن يقربهم بإعتبارهم أركان دولته أعرض عنهم وخشي من نفوذهم وأضمر لهم السوء، غير أنه لخفته وهوجه كان يجاهر بذلك فكان إذا سكر بالليل جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول هكذا أفعل بالبحرية ويسمى كل واحد منهم بإسمه[2].

وقف سائر أمراء المماليك البحرية موقفاً معادياً من تورانشاه لأنهم بلغهم منه من التهديد والوعيد ما نفر قلوبهم منه، وبدلاً من أن يكافئهم على وقفتهم المشرفة معه أخذ في إبعادهم والإستغناء عنهم وولى مكانهم بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا وكانوا أطرافاً أرازل[3].

ثم وعد تورانشاه الأتابك أقطاي بولاية الإسكندرية ولكنه لم يف بوعده بل قيل أنه عزم على إرساله بشيراً بالنصر إلى بدر الدين لؤلو صاحب الموصل، وأنه أراد بذلك أن يقبض عليه بدر الدين ويعتقله في بعض القلاع. فتنكر أقطاي لتورانشاه وصار يتربص به الدوائر، وقيل كذلك أن السلطان أراد أن يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر

---

[1] سبط بن الجوزي: مصدر سابق، ص52.
[2] إبن تغري بردي: مصدر سابق، ص372.
[3] أبوالفداء: مصدر سابق، ج3، ص181.

إلى ملوك البلاد المجاوره ليبعدهم عن القاهرة ففطنت المماليك إلى حيلته وعلموا أنه يريد التخلص منهم[1].

كل هذه الإمور جعلت المماليك يحنقون على السلطان تورانشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه من قبل أن يبطش بهم وقام بتنفيذ هذه المهمة أربعة من قادتهم منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري.

فنجحوا في قتله في فارسكور في صباح يوم الإثنين الموافق 2 مايو سنة 1250م بعد فراغ تورانشاه من طعام إفطاره تقدم إليه القائد بيبرس البندقداري وضربه بالسيف وقطع أصابعه والتجأ تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل واحتمى بأعلاه وأغلق على نفسه الباب فتبعه بيبرس وأقطاي وغيرهما من زعماء البحرية وقالوا: (بعد جرح الحيّة لا ينبغي إلا قتلها) وأحاطوا البرج وأضرموا النار فيه ورموه بالنشاب فألقى نفسه من أعلى البرج طلباً للنجاة ولم يتركه المماليك وإنما لاحقوه بسهامهم وصاح في المماليك مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين مافيكم من يجيرني؟ فلم يغثه أحد وظل المماليك يرمونه بالنشاب من كل ناحية حتى قطعوه بالسيوف قطعاً حتى مات جريحاً غريقاً حريقاً وتركت جثته على شاطي البحر ملقاة بالعراء ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي فحمل إلى الجانب الأخر من النهر ودفن، ومما يدعو إلى الإلتفات هنا أن قتل تورانشاه وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم ساكناً لإنقاذه مما يدل على إمتلاك المماليك زمام الموقف[2].

وجد المماليك أنفسهم في وضع جديد فهم اليوم أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ومقاليد الأمور في أيديهم ولم يعودوا أداة في أيد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف، وعليهم أن يختاروا سلطاناً للبلاد، فاجتمع الأمراء المماليك البحرية وكبار رجالات الدولة وأهل المشورة بالدهليز السلطاني عقب مقتل تورانشاه وإتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطانة على مصر. ويعجب المرء من إختيارهم هذا بدلاً من إختيار واحداً منهم وهم الأبطال الصناديد والقادة الذين مشى النصر في ركابهم، وعهدوا إلى الأمير عز الدين أيبك التركماني بأتابكية العسكر،

---

[1] الشيال: مرجع سابق، ص135.

[2] Victor duruy: The history of the middle eges, New York, Henry Holtand company, p p280.

وأقسم الأمراء على ذلك وخرج الأمير عز الدين الرومي إلى قلعة الجبل بالقاهرة وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الإتفاق على إختيارها سلطانة على مصر فأبدت موافقتها وأصبحت كل إمور مصر في يدها[1].

وما أن جلست شجر الدر على عرش الحكم حتى قبضت على زمام الإمور وأحكمت إدارة شئون البلاد وكان أول عمل إهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد وإدارة مفاوضات معه إنتهت بالإتفاق بين الطرفين على تنفيذ شروط الصلح السابقة التي وقعت بين المعظّم تورانشاه ولويس التاسع وأهمها تسليم دمياط ودفع الفدية البالغ قيمتها ثلاثمائة بيزنط على أن يدفع نصفها قبل الرحيل عن الديار المصرية والباقي بعد وصوله إلى عكا مع تعهد منه بعدم العودة إلى سواحل الإسلام مرة أخرى وفك أسر من لديه من المسلمين، وبعث الملك لويس التاسع إلى الصليبين في دمياط يأمرهم بتسليمها للمسلمين فأبوا فكرر أوامره إليهم إلى إن دخل العلم الإسلامي دمياط في مايو 1250م ورفع على أسوار دمياط، فكانت مدة إستيلاء الصليبيين عليها أحد عشر شهراً وتسعة أيام[2].

ثم أبحر لويس التاسع بعد ذلك من دمياط إلى عكا حيث أستقبل إستقبال البطل المنقذ. وكان الصليبيون في الشام قد بلغوا درجة يرثى لها من الضعف واليأس والإنحلال بعد أن أفقدتهم هزيمة فارسكور هيبتهم وحرمتهم من زهرة جيشهم.

ولقد كان للمماليك دور عظيم في صد الخطر الصليبي في عهد خلفاء صلاح الدين فلهم الفضل الأول بعد الله في هزيمة الصليبيين في المنصورة – فارسكور كما كان لهم الدور العظيم في سقوط الدولة الأيوبية، فاشتراكهم في الصراع مع الأيوبيين ضد الصليبيين جعلهم يشعرون بأهميتهم ويعتدون بقوتهم في الوقت الذي كانت الدولة الأيوبية في مصر تعاني الكثير من مظاهر الخور والضعف خاصة بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب وتولي السلطان المعظّم تورانشاه حكم مصر خلفاً لأبيه، ونظراً لما به من الخفة والهوج وقف موقفاً عدائياً مع المماليك البحرية حتى قتلوه.

---

[1] أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس، 1984، ص243.

[2] حمدي عبد المنعم: مرجع سابق، ص150.

وبمقتل تورانشاه بن السلطان الصالح نجم الدين أيوب في عام 1250م ينتهي عصر الدولة الأيوبية في مصر والشام وبتولي شجر الدر يبدأ عصر جديد هو عصر سلاطين المماليك.

وبقتل تورانشاه إنتهي حكم الأيوبيين في مصر وأختار المماليك شجر الدر لتكون سلطانة علي مصر وبذلك يمكن إعتبارها أولي سلاطين المماليك في مصر وأخذت البيعة للسلطانة الجديدة في مايو 1250م بإعتبارها أم ولد هو خليل شجر شاه الذي توفي في حياة والده وحرصت شجر الدر علي إظهار ذلك في علامتها للإمور والمراسيم فكتبت (والدة خليل) وجعلت صيغة الدعاء علي المنابر: (وأحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح)[1].

وأخذت شجر الدر تتقرب من أمراء المماليك وتمنحهم الرتب والإقطاعات، كما خفضت الضرائب علي الأهالي لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة، علي أن الأحوال إضطربت علي أثر توليها السلطنة ذلك أن الخليفة العباسي المسعتصم بالله لم يوافق أهل مصر علي إقامة إمرأة في السلطنة وردّ عليهم بقوله: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتي نسير إليكم رجلاً) كما ثار أمراء دمشق عليها[2].

هذا فضلاً عن الموقف الذي مرت به البلاد إذ أن الصليبيين كانوا لا يزالون يحتلون دمياط مما تطلب وجود رجل قوي في الحكم، لذلك أسرع أمراء المماليك بتزويج شجر الدر من الأمير عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر، ولم يلبث أن أعلن أيبك سلطاناً في نهاية يوليو سنه1250م وتنازلت له شجر الدر عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً[3].

رغم إقرار المماليك لزعيمهم (إيبك)على سلطنة مصر بعد تنازل شجر الدر إلا أن الأحوال لم تستقر تماماً ذلك أن الأهالي لم ينسوا الأيوبيين بل كثيراً من المماليك البحريه كانوا لايزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعي في عرش مصر فلم يرضوا عن سلطنة أيبك، ولم يطمعوا في أن يحكم المماليك مصر فأتفقوا على صيغة للحكم غريبة ونادرة تعتبر حلاً وسطاً لإرضاء جميع الأطراف وهي إقامة سلطانين معاً في وقت واحد

---

[1] محمود elderiny: سقوط الدولة الايوبية وقيام دولة المماليك www.kenanaonline.com .
[2] عمر رضا: مرجع سابق، ص287.
[3] إبن تغري بردي: مصدر سابق، ص374.

وذلك بتولية سلطان آخر من الأسرة الأيوبية هو (الأشرف مظفر الدين موسى) وكان له من العمر ست سنوات ولقبوه الملك الأشرف وأن يكون أيبك التركماني أتابكه[1].

ولما كان هذا الوضع الشاذ غير قابل للإستمرار فقد إنتهز أيبك رسوخ أقدامه في الحكم مع إزدياد خطر التتار في الشام وتهديدهم بمصر فأزال إسم الملك الأشرف من خطبة الجمعة في المساجد وقبض عليه وحبسه في قلعة الجبل، وبذلك يمكن إعتبار الملك الأشرف هو آخر سلاطين الأسرة الأيوبية في مصر وبعزله إنتهت رسمياً فترة حكمهم. وبإنفراد (أيبك) بالسلطنة تبدأ فترة حكم المماليك البحرية لمصر سنة 1252م[2].

[1] أبو الفداء: مصدر سابق، ص183.
[2] المقريزي: مصدر سابق، ص270.

الخاتمة

تميز العصر الأيوبي بطابع خاص هو طابع الجهاد والكفاح ضد الصليبيين، ولقد كان المبرر الشرعي والأخلاقي لقيام الدولة الأيوبية التي أسسها الناصر صلاح الدين الأيوبي علي أنقاض الدولة الفاطمية وبقايا الدولة الزنكية يتمثل في دور مؤسسها في الجهاد ضد الهجوم الصليبي.

فقد كانت الدولة الأيوبية التي حكمت مصر والشام والعراق وفرضت نفوذاً مباشراً أو غير مباشر على اليمن والحجاز تجسيداً للإستجابة السياسية والعسكرية التي فرضتها الحروب الأوروبية الصليبية طوال القرن الثاني عشر الميلادي. ومن ناحية أخرى فإن هذه الدولة لم تظهر فجأة من غياهب المجهول وإنما حلت محل الدولة الزنكية التي قامت بالدور التمهيدي الرائع في التصدي للخطر الصليبي، بيد أن الفارق بين الدولة الزنكية والدولة الأيوبية يتمثل في حقيقة أن عماد الدين الزنكي وإبنه وخليفته نور الدين محمود لم يتمكنا من توحيد مصر والشام في مواجهة شاملة ضد الصليبيين المستوطنين في فلسطين وبلاد الشام على نحو ما فعل صلاح الدين الأيوبي. ولكن الدولتين تتشابهان من حيث أن خلفاء نور الدين محمود فشلوا في مواصلة دوره التاريخي فخسروا دولتهم لصالح صلاح الدين الأيوبي كما أن خلفاء صلاح الدين إكتفوا برد الفعل وتركوا زمام المبادرة لعدوهم فخسروا دولتهم لصالح مماليكهم الذين إستحقوا مكانتهم في التاريخ حين جعلوا مشروعهم الأساسي الدفاع عن المسلمين ضد العدوان الصليبي المستمر والعدوان المقولي الطارئ.

وبوفاة صلاح الدين 1193م إنقسمت تلك الدولة التي أجهد نفسه في إقامتها ولم شملها إلي عدة وحدات ذات إستقلال سياسي بين أبنائه وإخوته وكبار قادته، فأدى الفراغ السياسي الناجم عن وفاة صلاح الدين الأيوبي وعدم وجود شخصية قيادية في مستواه، أدى إلي نشوب نوع من المنازعات العبثية بين الحكام الأيوبيين وكان الطابع العام لخلفاء صلاح الدين – كما رأينا – هو التنازع والتخاصم والإقتتال ضد بعضهم البعض من ناحية أخري، ويعني هذا في التحليل الأخير أن الأيوبيين تخلوا عن دورهم التاريخي وهو مبرر إستمرارهم في الحكم، والمصدر الأساسي لشرعية هذا الحكم لكي يتفرغوا للإقتتال ضد بعضهم البعض، مما أدي إلي ضعف تلك الدولة في نهاية الأمر وأوشكت

الوحدة القوية التي كدّ في تكوينها أن تنفصم عراها. وهكذا لم تعد العصبية القوية التي مهدت لقيام الدولة الأيوبية عندما إلتف جميع أفراد البيت الأيوبي حول صلاح الدين وأعانوه في إقامة هذه الدولة أولاً في مصر وكانوا ساعده الأيمن في فتح مختلف البلدان فقد تحولت تلك العصبية إلي منازعات وصراعات وكان لضعف تلك العصبية أثر كبير في ذلك الإنهيار الذي حدث للدولة الأيوبية في 1252م.

وكان لابد أن يظهر بعد وفاة صلاح الدين حرص أفراد أسرته علي إمتلاك البلاد ووصل أملاكهم المتناثرة. وقد طفح تاريخ الأيوبيين في هذه المرحلة بالمؤامرات والحروب الأهلية المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية كلٌ يريد أن يتوسع علي حساب الآخرين ماوسعه جهده، لكن ليس معنى هذا ألا ترى في تاريخ الأيوبيين سوى المنازعات والخلافات الأسرية، فقد حفل تاريخهم أيضاً كما تقدم بالجهاد ضد الصليبيين، ولكن التوتر الذي ساد العلاقات بين الورثة كان نقمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان ويمتد بحزاء الساحل من بيروت حتى يافا، وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية التي أصبحت عاصمتها عكا بفترة سلام قاربت العشر سنوات وهي فترة كانت كافية لكي يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرت بهم ولكن كان واضحاً أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين.

ومن الملاحظ أن الدولة الأيوبية قد فقدت مبررات وجودها منذ تخلي ملوك وأمراء بني أيوب عن دور صلاح الدين الأيوبي بشكل أو بآخر. وعلي الرغم من جهود العادل وإبنه الكامل وحفيده الصالح نجم الدين أيوب ضد الصليبيين فإننا يجب أن نلاحظ أنهم جميعاً كانوا يميلون إلي مهادنة الصليبيين حتي يتفرغوا لقتال أقاربهم وتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية الخاصة، كما ينبغي أن نلاحظ أنهم جميعاً قد تنازلوا عن الكثير من تراثهم السياسي عندما أعادوا بعض الأراضي التي إستردها المسلمون بقيادة صلاح الدين الذي هو أبرزهم في هذا الصدد، فإن أخاه العادل قدم للصليبيين عروضاً مماثلة في سخائها وتخاذلها كما أن الصالح نجم الدين أيوب عقد معاهدة مع تيبالد الشمباني وجددها مع ريتشارد كورنول تتضمن تنازلات كبيرة للصليبيين، وينبغي أن نلاحظ أن جهود الأيوبيين العسكرية ضد الصليبيين كانت في جملتها جهوداً دفاعية تأتي في نطاق رد الفعل علي هجمات الصليبيين. وهكذا فإن الأيوبيين وجدوا أنفسهم غير قادرين

علي أداء دورهم التاريخي ووجدوا أنهم في غمرة منازعاتهم قد أنشاوا القوة البديلة لهم وهي المماليك.

والواقع أن السنوات التي نعم فيها الأيوبيين بقوة وبأس شديدين كانت حافلة بالمعارك المتواصلة ضد الصليبيين الذين واصلوا تهديدهم لمصر وكانت آخر المعارك ضد الصليبيين عندما غزا لويس التاسع مصر وقد إنتهي هذا الغزو بأسر الملك والكثرة الكبيرة من نبلائه، ولكن النصر كان نصراً مؤقتاً بالنسبة للسلطان الصليبي تورانشاه فبعد عام واحد من إنزال الهزيمة بالصليبيين في فارسكور خسر الأيوبيين سيطرتهم على مصر واضطروا إلى الإكتفاء ببعض الممتلكات الصغيرة المتناثرة في سوريا والعراق.

ومثلما ظهرت الدولة الأيوبية من طيات الصراع ضد الصليبيين فإن سقوطها جاء نتيجة لإخفاق الأيوبيين والأواخر لتوحيد الجهود لمواجهة الكيان الصليبي وبرزت قوة بديلة أثبتت أنها أكثر قدرة على القيام بالدور التاريخي الذي كان مبرراً لقيام دولة الأيوبيين من قبل، وكان المماليك هم الذين جسّدوا هذه القوة الجديدة ولأنهم نجحوا فيما فشل فيه الأيوبيون فقد أخذت دولتهم دور الدولة الأيوبية وحلت محلها، ومن المهم أن يلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة سلاطين المماليك لم يغيرا من إتجاه حركة التاريخ في المنطقة العربية، فالحقيقة أن الدولة الأخيرة كانت إمتداداً بنيوياً للدولة الأولى من حيث بنائها السياسي وطبيعتها العسكرية ودعائمها الإقتصادية/ الإجتماعية فضلاً عن أنها ورثت عنها دورها السياسي/ العسكري في مواجهة الصليبيين.

والواقع أن سقوط الأيوبيين لم ينشأ من جهود أعدائهم الطبيعيين وهم الصليبيين، لقد كان العدو في داخل بلاطهم نفسه ذلك بأن السياسة التقليدية التي قضت بإستئجار القوات الأجنبية والتي قضت بشراء المماليك لتعزيز الجيش أفضت كرة أخرى إلي إنهيار دولة إلتمست عندهم أسباب البقاء، فقد إتبع كل خلفاء صلاح الدين سياسة العزيز حين إصطنع جيوشاً مستأجرة للسيطرة على الدولة فأدت هذه السياسة في آخر الأمر إلى إنهيار الدولة المحتوم. فخلق خلفاء صلاح الدين المماليك ليحاربوا بهم الصليبيين فقوي ساعد المماليك واستأثروا بالسلطة من ملوكهم الأيوبيين.

وهكذا نرى أن خلفاء صلاح الدين لم يقوموا بنفس الدور الذي قام به في الجهاد ضد الصليبيين ولم يهتموا بخلق دولة قوية تقف في وجه الأطماع الصليبية فانخرطوا في حرب الوراثة والعداء بين بعضهم البعض وبينهم وبين سلاجقة الروم. وأن الفترة من

1193– 1252م كانت فترة ضعف وخور ولكن لابد أيضاً أن نحفظ للأيوبيين حقهم كاملاً في ما قاموا به في حطين الثانية وفارسكور والمنصورة. وإذا كان المماليك هم الذين بمساعدتهم تم إجلاء الصليبيين عن مصر فإن الأيوبيين هم الذين أنشاوا المماليك في غمرة صراعهم ضد الصليبيين وخلقوا منهم قوة فتية وقفت في وجه الصليبيين حتى طردوهم نهائياً من المشرق الإسلامي.

يحسب الباحث أن هذه الدراسه قد آتت أكلها لأنه تعرض لكل الصراع الأيوبي الصليبي في فترة خلفاء صلاح الدين حيث عرض الحمله الصليبيه الرابعه وحتى السابعه كما تعرض للإشتباكات التي تخللت الحملات بين الأيوبيين والصليبيين وتعرض أيضاً للحملات التي لم تأخذ أرقاماً كحملة الأطفال والحملة الفرنسيه والإنجليزيه، ووقف على الدور الجهادي لخلفاء صلاح الدين الأيوبي. وإذا كان الأيوبيون قد إنتصروا على الصليبيين أو إنهزموا أمامهم كما في الحملة السادسة والسابعة ففي الحالتين قد خسر الأيوبيون دولتهم لأن الحروب قد أنهكتهم وكذلك الخلافات والمنازعات الداخلية فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى إزدياد منحنى التدهور في قوة دولتهم بشكل أغرى المماليك على الطمع فيها.

قائمة الملاحق

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

اولاً المصادر:

1. أبو الفداء الحافظ بن كثير: البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة، الجزء الثاني عشر، الطبعة الخامسة، تحقيق أحمد عد الوهاب فتيح 1418هـ – 1998م.
2. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه الدكتور إحسان عباس،المجلد الخامس، دار الثقافة، بيروت، (بدون تاريخ).
3. أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح محمد حسين شمس الدين، المجلد الرابع، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.
4. الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008م.
5. الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن على بن أبي الكرم المعروف ب(إبن الأثير):
6. أ/ الكامل في التاريخ، المجلد الحادي عشر، دار الفكر للطباعة والنشر، دار صادر، بيروت، – 1399هـ – 1979م.

   ب/ الكامل في التاريخ، المجلد الثاني عشر، دار صادر، بيروت، 1402هـ – 1984م.
7. الفقيه أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الخامس، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (بدون تاريخ).
8. العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح، القاهرة، 1965م.
9. بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، 1964م.

10. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، الطبعة الثانية (منقحة قام بنشرها محمد مصطفى زيادة)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1936م.
11. جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، الجزء السادس، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1963م.
12. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الثالث، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر دار العلم القاهرة، (بدون تاريخ).
13. سبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثاني، تحقيق ونشر الغامدي، مكه المكرمة، 1987م.
14. شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين الثورية والصلاحية، الجزء الأول، القسم الثاني، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة الدكتور محمد مصطفى، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1962م.
15. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: تاريخ بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971م.
16. عماد الدين إسماعيل أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، الجزء الثالث، (دون ناشر)، (دون تاريخ).

ثانياً المراجع

أ / المراجع العربية:

1. إبراهيم الأبياري: البطل الخالد صلاح الدين والدولة الأيوبية، دار النهضة العربية، القاهرة، (بدون تاريخ).
2. أحمد مختار العبادي:

أ/ قيام دولة المماليك الأولي في مصر والشام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1967م.

ب/ في تاريخ الأيوبين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1995م.

3. أحمد فؤاد سيد: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب 567– 648 هـ، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002م.
4. أحمد عبد الرازق: مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مكتبة سعيد رأفت، عين شمس، 1984م.
5. السيّد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبّادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، الجزء الأول، مؤسسة الشباب الجامعية، 1993م.
6. الشيخ محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، 1998م.
7. بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية، 1978م.
8. حمدي عبد المنعم حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998م.
9. جمال الدين الشيّال: تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثاني، العصران الأيوبي والمملوكي، دار المعارف، مصر، 1967م.
10. جوزيف نسيم: لويس التاسع في الشرق الأوسط، مؤسسة المطبوعات الحديثة، الطبعة الثانية، 1959م.
11. حامد زقان غانم: محاضرات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الثقافة العربية، (بدون تاريخ).
12. حمدي عبد المنعم حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998م.
13. دريد عبد القادر نوري: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (570 – 589هـ، 1174 – 1193م)، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976م.
14. سعيد عبد الفتاح عاشور:

أ/ قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، 1957م.
ب/ الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963م.
ج/ أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسي، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلوالمصرية، 1964م.

15. صابر محمد دياب: تاريخ وحضارة مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي حتى إنتهاء العصر الفاطمي 642–1171م، الناشر وحدة الطبع جامعة القاهرة فرع الخرطوم، 1989م.
16. صبحي عبد الحميد: معارك العرب الفاصلة، الطبعة الأولى، مكتبة المنار بالكويت، 1967م.
17. عبد العزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، الكتاب الناشر، 1964م.
18. عبد العزيز سالم وسحر عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1992م.
19. عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين بطل حطين، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة السادسة، 1985م.
20. عصام شبارو: السلاطين في المشرق العربي السلاجقة والأيوبيون، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1994م.
21. عصام عبد الرؤوف الفقي: الدولة الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987م.
22. علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، 1967م.
23. علي محمد الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.
24. عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة، مؤسسة الرسالة، 1404هـ 1984م.

25. قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم، مصر، 1995م.
26. قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الهرم، مصر، 2001م.
27. قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
28. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، (بدون تاريخ).
29. محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي برين على مصر (1218 – 1221م / 615 – 618هـ)، تقديم جوزيف نسيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978م.
30. محمود الحويري: العادل الأيوبي صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، دار حراء، القاهرة، 1980م.
31. ناصر الأنصاري: المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، 1993م.
32. نعمان الطيب سليمان: منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، الطبعة الأولى، مكتبة الحسين الإسلامية، 1991م.

ب / المراجع المعربة:

1. إستيفن رانسمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، تعريب السيد الباز العريني، الطبعه الثالثه، 1413هـ/1993م.
2. السير وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الاولى، 1995م.
3. روم لاندو: الإسلام والغرب، تعريب منير البعلبكي، ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1962م.

4. سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1961م.
5. نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، الجزء الثاني، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1986م.
6. ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الرابع، المجلد الرابع، تعريب محمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1975م.

ج / الرسائل جامعية:

1. محمود رزق محمود: العلاقة بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة بالخرطوم، 1973م.
2. أحمد عطية رمضان: العلاقات بين الدولتين الفاطمية والأيوبية والمدن الإيطالية، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة القاهرة بالخرطوم، 1984م.

د / المراجع الأجنبية:

1. Charles Oman: History of the art of war - The middle ages, Methuen & Co. 36 Essex Street w.c., London, 1898.
2. Edward Maslin: The middle Ages, George Allen & Unwin LTD London Museum Street.
3. Joinville: The life of Saint Louis (transl.with an introduction by: M. R. B. Shaw, benguin 1975).
4. Nejla Izzeddin: The Arab World_ Bast Bresent and Future, Henry Regnery Company, 1953.
5. Philip k. Hitti: History of the Arab, Macmillan and co. limitd. Martin's street, London, 1940.
6. R. C. Smail: Crusading warfare; 1097 – 1193; Cambirg University press; 1950.
7. Victor Duruy: The history of the middle ages, New York, Henry Holt Company, 1900.

هـ / مواقع محوسبة:

1. احمد تمام: 1www.islamonline.com
2. محمود elderiny:www.kenanaonline.com